حكايات آل الغنيمي

حكايات آل الغنيمي
رواية
منير عتيبة
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الثانية: ٢٠١٨
الطبعة الأولى:٢٠٠١ الهيئة المصرية العامة للكتاب
ISBN 978 -01-7180 -8
رقم الإيداع : ٤٤١٤/ ٢٠٠١
ديوى : ٨١٣
١٣٢ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

حكايات آل الغنيمي

رواية

منير عتيبة

إهداء

إلى الذين يستطيعون رؤية الحقائق بعمق ومواجهتها بشجاعة...

وإلى الذين لا يستطيعون...

فلنحاول!

منير عتيبة

١

الرغبات الجهنمية المستترة في أغوار النفس السحيقة يتضوع شذاها الغريب، يتنفسها ليل نوفمبر الرطب، تسكن الغلالة الرقيقة من الضباب الهش التي تغلف ترعة القرية، يتصاعد فحيحها مع نقيق الضفدع الشبق، ونباح الكلب الذي اعتلى أنثاه ونبح نباح النصر الغريزي المؤزر.

"المرأة بنت الكلب هل ستأتي أم ستخلف الموعد هذه الليلة أيضًا؟"

شد فتحي الغنيمي نفسًا من سيجارته المحشوة بالحشيش، وأسرع الخطى وهو يخترق الشارع الرئيسي في القرية.

كانت القرية نائمة... مظلمة إلا من مصباح صغير على باب دكان سيد محروس البقال، ومصباحين في أعلى مئذنة المسجد، وبعض النجوم الشاحبات متناثرة في القبة السماوية السوداء.

يستطيع الخبير بليل القرية وحده أن يشم رائحة الرغبات المحمومة، والمشاعر المجنونة الهائجة، والأحاسيس الخطرة المفعمة بلذات الشبق المحرم وهى تسرح في ليل القرية الذي لا تبدو على سطحه الساكن الهادئ حقيقة ما يحدث تحت السطح من فوران وغليان لا نهائي، فوحده ابن الليل القروي هو الذي يمكن لأذنيه

أن تميزا بين حركة الأغصان الطبيعية بفعل هبات الهواء، أو حركتها بفعل حركات أجساد بشرية تقتنص لذتها من قبضة الليل.

"هذه هي الليلة الثالثة... إذا لم تأت المرأة النجسة سوف يكون لي معها شغل آخر."

ذاهب إليها... إلى (خميسة) البدينة ليلقي بداخلها بذور القلق المتنامية في أعماقه لعل جسده يهدأ، ولعل نفسه تستريح... ماذا فيها تلك المرأة ليجذبه أو يجذب سواه؟ إنها كتلة من اللحم والشحم... يكمن جمالها في عينيها وحركات حاجبيها... عيناها رماديتان داكنتان تصرخان بالرغبة المسعورة المشتعلة دومًا بداخل الجسد البرميلي الرجراج... وحاجباها عندما ترفعهما وهي تتكلم بدلال زائد، يناديان من يستطيع أن يسمع نداء وصرخات الأنثى عندما ترغب.

هل يمكن أن يصاب بالفشل؟

إن فكرة الفشل مع تلك المرأة الخبيرة تطارده منذ أول الليل... تطعنه وتجعله في غاية التوتر... لا يستطيع السيطرة على نفسه... من الممكن أن يتوقف قلبه عن النبض لحظات، وأن يصل جسده في عز الجحيم إلى درجة التجمد، وأن ترتخي أطرافه أو تموت... من الممكن أن يتخلى عنه جسمه وأن يخذله.

عندئذ ستنظر إليه خميسة باحتقار وخيبة أمل، وقد تبصق في وجهه، وتلعنه، وتلعن خروجها في منتصف الليل لتعاشر امرأة

مثلها... إنه لم يفشل من قبل... لم يخذله جسده أبدًا في كل الأحوال... لكن لعنة ما تنخر بداخل نفسه كأنها سوس شيطاني... تلقي بذور الخوف من فشل مريع فيرتعد (فتحي الغنيمي) ويحكم إغلاق ملابسه لعله يشعر بالدفء بدلاً من البرودة الرهيبة التي بدأت تجتاحه.

"خميسة نجسة بنت كلب... لن يمضي اليوم حتى يعرف كل أهالي البلد بألف طريقة وطريقة أن فتحي الغنيمي فقد رجولته."

حاول أن يتماسك حتى لا تتغلغل الفكرة الملعونة بأعماقه أكثر فيفشل بالفعل وتكون فضيحة العمر... تذكر فجأة (فكري) و(السيد بطشة) كانا في العاشرة تقريبًا... فكري الخجول الجميل الغبي... والسيد بطشة المشاكس المقتحم المتهور.

مات أحد أعيان القرية... أقيم سرادق فخم أمام المسجد يُسمع القادمين لتأدية واجب العزاء... وجاء مقرئ من الإسكندرية... والأضواء جعلت ليل القرية ظهرًا... كل ما لفت نظر السيد بطشة الكم الكبير من أعقاب السجائر الملقاة على الأرض... اقترح الفكرة في نفس اللحظة التي بدأ ينفذها فيها:

- يللا نلم السبارس.

تبعه فتحي الغنيمي بدون تفكير؛ بينما وقف فكري بعيدًا يقيده التردد... بعد أن ملأ فتحي الغنيمي والسيد بطشة جيوبهما بأعقاب السجائر لاحظهما أكبر أبناء المرحوم... فأشار إلى فتى من

العائلة لسحبهما بعيدًا... أتحفهما الفتى ببعض اللكمات والركلات وجمل منتقاة من الشتائم الشائع فيها استخدام أسماء الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى بالإضافة إلى أسماء بعض الحيوانات الدنيا.

أفلتا أخيرًا من قبضته... فأطلقا أقدامهما للريح... وجرى خلفهما فكري يتبعهما من بعيد... حط الثلاثة رحالهم خلف الوحدة البيطرية بين البوص الطويل حيث لا يستطيع ولا الجن الأزرق أن يراهم؛ كما أنه لا يقترب أحد من تلك المنطقة ذات الرائحة النتنة وجيوش البعوض المتقاتلة على مخلفات الوحدة البيطرية.

أخذ السيد بطشة وفتحي الغنيمي يشعلان (السبارس) ويشدان الأنفاس، فتحمر عيونهما، وتنتفخ خدودهما، وتسيل دموعهما مختلطة بالمخاط، ويكحان حتى تنقطع أنفاسهما، فيضحك فكري لما هما فيه...

- عاوزين تبقوا رجالة؟ في المشمش.

ضحك أكثر؛ لكنهما بعد قليل تعودا على الدخان، وأخذا يشربان السبارس بانسجام كامل، ويتخذ كل منهما الهيئة التي يظن أنه يبدو من خلالها كرجل كبير، فيستند السيد بطشة إلى حائط الوحدة البيطرية، ويضع قدما فوق الأخرى، ويرفع رأسه إلى أعلى عندما يخرج الدخان بينما يمدد فتحي الغنيمي ساقيه مباعدًا

بينهما، ويمد رقبته إلى الأمام محاولاً إخراج الدخان من أنفه في كل نفس.

نظر إليهما فكري بحسد... تمنى أن يعطيه أحدهما عقبًا لكنهما لم يعطياه شيئًا، فتردد قليلاً ثم طلب من السيد بطشة عقبًا... قال السيد بطشة مساومًا:

– بكم تشترى العقب؟

قال فكري وقد فوجئ بالسؤال:

– عاوز كام؟

قال السيد بطشة:

– بليتين!

احتج فكري:

– لا... بلية واحدة.

أصر السيد بطشة:

– لن أقبل أقل من بليتين.

الشيطان وحده هو الذي حرك شفتي فتحي الغنيمي بعد أن شد نفسًا ملأ بالدخان صدره وكتمه لحظة، ثم أفلح أخيرًا في إخراج الدخان من منخريه، وتدخل في الحديث قائلاً لفكري:

– حاأديك عقبين من غير ما أخد ولا بلية.

فرح فكري ومد يده ليأخذ العقبين وهو ينظر إلى السيد بطشة المحنق بشماتة... ضم فتحي الغنيمي أصابعه على العقبين قبل أن تلمسهما يد فكري وقال:

– لي شرط.

قال فكري متعجلاً:

– إيه هو؟

ضحك فتحي:

– تقلع لباسك.

قال فكري بدهشة وغيظ:

– يا ابن اللبوة... أقلع لباسي ليه؟

قال فتحي:

– علشان نعمل زي أبويا وأمي بالليل!

قال السيد بطشة بحب استطلاع:

– وإيه اللي بيعمله أبوك وأمك بالليل؟

وقال فكري:

– احك لنا يا فتحي!

قال فتحي لفكري:

– اقلع لباسك وحاتشوف.

وخلع الأطفال الثلاثة بنطلوناتهم، ونام فكري بين فتحي الغنيمي والسيد بطشة... يعطيه أحدهما عقبًا ليشربه بينما يعطي

هو مؤخرته للآخر وبعد أن ينتهي العقب، يعطي فكري ظهره لمن جاء عليه الدور!

وأصبحت تلك لعبتهم السرية التي لم يخبروا بها أحدًا أبدًا إلى أن مات فكري... مات بعد شهور قليلة من اكتشاف اللعبة الجديدة... قال فتحي الغنيمي وهو يبكي:

- فكري مات ليه يا خالتي أم فكري؟

قالت المرأة الثكلى:

- مات بالبلهارسيا زي عبد الحليم حافظ الله يرحمه.

كاد فتحي الغنيمي يقع على الأرض أمام المدرسة الابتدائية عندما عثرت قدمه بحجر... ألقى على مبنى المدرسة المتهالك نظرة فيها مرارة وفيها سخرية... إنه لم يمضِ فيها أكثر من عامين ثم أخرجه أبوه منها ليعمل معه في الدكان...

- إيه اللي حايعود علينا من التعليم والقراية والكتابة والفلوس اللي حانصرفها من غير فائدة... أكسب قرشًا أحسن.

كان يسير خلف المدرسة يوم الثلاثاء... الأسبوع الماضي... وعندما اقترب من حجرة المدرسات سمع ضجة، فوقف فوق حجر ونظر من الشباك الزجاجي المفتوح... كانت المدرسات الصغيرات يلعبن... واحدة ترقص، والثانية تطبل فوق كرسي، والباقيات يدُرن حول التي ترقص وهن يغنين بمرح طاغٍ:

"كل البنات اتجوزوا...

اتجوزوا ليه؟ اتجوزوا ليه؟

اتجوزوا عشان يتحبرشوا

حبرشوا ليه؟ حبرشوا ليه؟

حبرشني... يا حبرشني

يللا تعالى وحبرشني..."

لم يتمالك نفسه فضحك، فسمعن قهقهته، فأسرعت إحداهن بدورق ماء وألقته فوقه...

- بتعمل إيه هنا يا ابن الكلب؟

لم يغضب... مضى بعيدًا عن المدرسة وهو ما زال يضحك... سار بين الحقول لكن صورة المدرّسة التي ألقت عليه الماء، وشتمته ظلت عالقة بعينيه... لقد ذكرته بـ(نهى)... كان في الثالثة عشرة تقريبًا... ذهب لزيارة خالته في إحدى القرى المجاورة... خالته حسنية من أحب الناس إليه، وبيتها هو المكان الوحيد الذي يشعر فيه بالراحة لذلك فهو كثيرًا ما يزورها وأحيانًا يقضي لديها عدة أيام قد تصل إلى أسبوع... الميزة الوحيدة لبيت خالته حسنية أنه يختلف تمامًا عن بيته، فهي تعيش مع زوجها حسنين موزع البريد وابنها أسامة الطالب بالمرحلة الثانوية حياة هادئة، لا يعكر صفو هدوئها شيء مما يحدث كل يوم بل كل ساعة في بيت عائلته... ابتسم بمرارة مألوفة الطعم... ردد الكلمة بسخرية:

"العائلة... العائلة... يا عيني على العائلة... أتفو على العائلة."

كان حسنين في عمله، وأسامة في المدرسة... قبل أن يدق فتحي الباب كانت خالته حسنية قد فتحته:

- أهلاً يا فتحي تعالى يا ابني.

لم يدخل فتحي إذ رأى خالته بملابس الخروج...

- أنتى خارجة يا خالتي؟

- عندي واجب... خالتك أم عدلات عيانة... بيقولوا إنها بتموت... وواجب أروح أزورها... ادخل يا حبيبي.

قال وهو يتراجع بظهره:

- حا أرجع في وقت تاني.

- ممكن أطيب الرز عندكم يا خالتي حسنية؟ أصل وابور الجاز بتاعنا شطب، ومفيش جاز عند جرجس البقال.

التفت خلفه... كانت نهى ابنة جيران خالته... في السابعة عشر تقريبًا... سمراء... ملفوفة... وفائرة... قالت خالته بكرمها المعهود:

- اتفضلي يا نهى... وأنت يا فتحي استناني لحد ما أرجع.

جلس فتحي في حجرة المسافرين بينما دخلت نهى بالرز إلى المطبخ... وجدها بعد قليل تقف أمامه، وتنظر إليه نظرات لم يفهمها...

- أنت عندك كم سنة؟

- ثلاث عشرة.
- شكلك أكبر من كده.

وضحكت بخلاعة، وارتمت على الكنبة التي يجلس عليها فتحي، ونظرت إليه نظرات لم يفهمها، ومدت ذراعيها تريد احتضانه... كان رد فعل فتحي الغنيمي مضحكًا... هب واقفًا، وجرى إلى حجرة أسامة ابن خالته، وأغلق الباب على نفسه وهو يلهث... ضحكت نهى بخلاعة أكثر، وجرت خلفه، ودخلت الحجرة...

- يا عفريت... جيت هنا عشان فيه سرير.

وجذبت فتحي من ذراعة فوقعا معًا فوق سرير أسامة، واحتضنته بعنف... عصرته، وأخذت تقبله بنهم، ودارت به فوق السرير، فوجد نفسه فوقها، وكان هذا أول لقاء له بالمرأة!

*****

انحرف يمينًا... مضى بخطوات مسرعة في سكة (العامية)... سمع عواء ذئب... أشعل سيجارة جديدة بعد أن لسعته السيجارة التي في يده... شم رائحة دخان الفحم المتصاعد من منطقة العامية التي يحرق فيها الخشب ويحول إلى فحم... وضع يده في جيبه... صدمت بورقة... أخرجها... كانت مطبقة بإهمال... فتحها ثم كورها ووضعها بسرعة وقرف في جيبه... إنها شهادة انتهاء الخدمة العسكرية التي حصل عليها منذ شهور قليلة... "مخلة بالشرف."!

كان انضباط حياة الجندية شيئًا جديدًا عليه، وكان صعبًا وثقيلاً لم يتحمله فقد اعتاد أن يكون على هواه... يفعل ما يريد وقتما يريد... لا يرتبط بشيء ولا بأحد... ومما زاد الحياة العسكرية صعوبة على نفس فتحي الغنيمي الصول (عبد ربه خلاف) فقد كان يعامل فتحي معاملة خاصة فيها قسوة، وخشونة، وإهانة زائدة عن الحد المعتاد بالنسبة لبقية المجندين؛ لذلك قضى فتحي الأسابيع الأولى له في الجيش زاحفًا على بطنه في الشمس المحرقة، أو حاملاً للمخلة في منتصف الليل وهو يرتدي ملابس التربية (الشورت والفانلة) أو واقفًا في المطبخ يقشر بصل، ويقطع القلقاس، أو بيده جردل ماء ومكنسة ينظف بها الميس... كل ذلك بأمر الصول عبد ربه خلاف!

بلغ فتحي قمة الاستثارة ذات مرة عندما زعق فيه الصول عبد ربه...

– أنت يا عسكري يا بيادة يا حمار... الحركة دي غلط.

وشده من الصف وضربه بالشلوت...

– ازحف ربع ساعة يا غبي.

كانت هذه شكة الدبوس التي انفجرت بسببها نفس فتحي الغنيمي التي ظلت معاملة الصول عبد ربه تملؤها حقدًا وغلاً ومرارة طوال الأسابيع الماضية فما شعر فتحي بنفسه إلا وهو يرفع

الصول عبد ربه بين ذراعيه، ثم يلقيه على الأرض، ويضربه لكمات متتالية غطت وجهه بالدماء.

انتظر زملاء فتحي يسعدون أنفسهم بالانتقام من الصول عبد ربه، ثم تظاهر بعضهم بالتدخل لإنقاذ حضرة الصول وهم في الواقع يساعدون فتحي في ضربه.

تشكلت محكمة عسكرية لمحاكمة فتحي الغنيمي، وألقي به في السجن... حجرة مترين في مترونصف بها نصف دستة من البشر، ولم يتحمل فتحي السجن... كان زملاؤه في السجن مجموعة من الوحوش السادية... ضربوه... انتهكوه، فهرب من السجن وقُبض عليه... وسُجن مرة أخرى... وهرب ثانية... وقُبض عليه... وهكذا.

أفهم أحدهم فتحي أخيرًا سر اضطهاد الصول عبد ربه له... لقد كان يريده... فأعطاه نفسه خلف مطبخ الكتيبة، ودبر الحكاية بحيث يتم ضبطهما وهما في هذا الوضع، فطرد من الخدمة وأعطي شهادة "مخلة بالشرف.".

*****

اقترب فتحي الغنيمي من مكان اللقاء... هاجمته الوساوس والمخاوف والظنون مرة أخرى... تساءل بينه وبين نفسه: "هل سيجد خميسة هناك؟ أم سينتظرها؟ وهل سيطول به الانتظار؟"

اختارت خميسة أبعد حقل عن القرية، ووافقها على اختيارها؛ لكنها أخلفت الموعد ليلتين متتاليتين؛ مما جعله يشعر أنها تلعب به، أو تسخر منه، أو لا تعتقد أنه رجل.

سار في هذا الطريق الطويل الليلة الماضية... والليلة التي قبلها... تمزقت نفسه بالأفكار والأحاسيس والخيالات في طريق الذهاب، وامتلأت نفسه بالخيبة والإحباط والإحساس بأنه سينفجر في طريق العودة... والليلة... هل... "بنت الكلب... لو أخلفت هذه الليلة أيضًا فلن تأمن شر غضبي.".

تعرف بخميسة بعد عودته من الجيش... كان يجلس في دكان أبيه يبيع الخضروات والفاكهة، وكانت تتردد عليه لشراء ما تحتاجه... تتعمد أن تميل بثدييها الرجراجين عليه، أو تحكهما بصدره، وتضحك بإغراء لأي كلمة يقولها، وتضرب كتفه ضربة خفيفة وهي تنظر في عينيه بالرغبة المشتعلة في عينيها الداكنتين، وترفع حاجبيها إلى أعلى، فيسيطر فتحي على نفسه بصعوبة بالغة حتى لا يحتضنها... لم تكن سيرتها خافية عليه، وكان يعرف أن باستطاعته أن ينالها بسهولة... كل القرية تعرف ذلك حتى زوجها سعيد الشضلي... اتفقا على اللقاء في آخر حقل بالقرية، خلف الصخرة الكبيرة بالقرب من (العامية) وأخلفت الموعد في الليلة الأولى، ثم جاءت للدكان... واعتذرت لفتحي... فقد شعرت بمغص كان يمزق بطنها طوال الليل، وأخذت كيس برتقال كبير، وذهبت

على وعد باللقاء في الليل وفي نفس المكان، وأخلفت أيضًا موعدها في الليلة الثانية، وجاءته تعتذر بعذر جديد... صداع قاتل كاد يفتك بها، وأخذت كيس فاصوليا وذهبت على وعد جديد باللقاء الليلة... هل ستخلف الموعد الليلة أيضًا؟

وصل فتحي الغنيمي إلى المكان المتفق عليه... لم يجدها ألقى بالسيجارة التي بيده ودهسها بحذائه... ثم جلس على الأرض... وأسند ظهره إلى الصخرة الكبيرة... وهو يشعر أن رغبته الجامحة ستفتك به إن لم تحضر خميسة الليلة.

*****

٢

تحفظ الطريق كما تحفظ اسمها... تستطيع أن تغمض عينيها الداكنتين، وتخرج من حجرتها الضيقة القذرة الغارقة في الفوضى، وتسير في الزقاق الذي يوصلها إلى الشارع الرئيسي، ثم تدور حول المدرسة الابتدائية، وتسير عبر الحقول التي رأت كثيرًا مغامراتها الليلية حتى تصل إلى الصخرة الكبيرة عند العامية... مكانها المفضل... هو هناك الآن... فتحي الغنيمي... لابد أنه ينتظر منذ أول الليل متقلبًا على جمر الرغبة الملتهب... فلينتظر... هذا أفضل... لديها طقوس خاصة، وطريقة تجيدها في التعامل مع الشباب الصغير... لقد أعدته في البداية، ثم منته باللقاء، وأخلفت الموعد ليلتين متتاليتين، وتعمدت التأخير الليلة، لينتظرها أطول مدة ممكنة، فعندما يصل به الانتظار إلى الحالة القصوى، سيصبح وحشًا أليفًا، يمكنها أن تأخذ منه أقصى ما لديه من طاقة شبابه الكامنة، ويمكنها أن تمتلكه كله، وتشعر بلذة امتلاكه... سمع فتحي الغنيمي صوت أقدام ثقيلة تطأ العشب، ثم ظهرت خميسة أمامه بكامل كتلتها الهائلة... نهض واقفًا... جرى إليها...

- إيه اللي أخرك؟
- المهم أني جيت.

– تعالي.

وجذبها من يدها، فتركت نفسها لتسقط بجانبه على العشب... قبلها بشبق مسعور... وضع يده في صدرها... ضغط ثديها الضخم بعنف... تفجرت ينابيع اللذة داخل جسدها... شدته إليها... أخذته بين ذراعيها... رفع ذيل ثوبها... وأدخل يده... يقترب منهما صوت أقدام تجري... "مين هناك؟" لا شك أنه إبراهيم علوان صاحب الأرض... ما الذي أتى به الآن؟ ألديه نوبة ري الليلة؟ قامت خميسة بسرعة... اختفت خلف الجانب الآخر من الصخرة... حاول فتحي أن يجري... أمسكه إبراهيم علوان من قفاه...

– بتعمل إيه هنا؟

تلعثم... دفعه إبراهيم علوان بعنف فوقع على الأرض... ثم جثم فوقه وناوله لكمة في فمه... سال الدم مغطيًا شفته السفلى وذقنه...

– أنا عارفكم يا كلاب يا أولاد الزواني.

وناوله ضربة أخرى كادت تفقده الوعي...

– أرضي جامع اللي يقرب منها علشان ينجسها أقتله.

وهَمَّ ابراهيم علوان بضرب فتحي الغنيمي لكمة أخرى لكنه رأى جزءًا من فستان خميسة، وعرف أنها تختبئ خلف الصخرة، فرفع فتحي، ثم دفعه بيده بعيدًا، وركله في مؤخرته...

- لو شفتك هنا مرة تانية حا أشرب من دمك يا نجس يا ابن الكلب... روح في ستين داهية!

جرى فتحي مبتعدًا وهو يتعثر في نسمات الهواء... قدماه لا تقويان على حمله... يكاد يقع على الأرض بين لحظة وأخرى وشعور بالمهانة والضياع والإحباط يجتاحه... يزلزله... يشعر أنه سقط في هوة عميقة... لم يستطع أن يدافع عن نفسه... ولا عن خميسة... ولا عن... عن ماذا يدافع؟ ولماذا؟ ومتى كان لديه ما يدافع عنه؟ ومتى استطاع أن يدافع عن شيء؟

أحس فتحي الغنيمي بفراغ هائل داخله... فراغ لا نهائي... بلا حدود... صحراء من الرمال السوداء الناعمة تتحرك ببطء لا مرئي... تبتلعه... تغوص فيها نفسه التي لا تستطيع حتى أن ترفع يدها طالبة النجدة... بصق فتحي خلفه... فتطاير الرذاذ على وجهه.

دار إبراهيم علوان حول الصخرة دون أن يحدث صوتًا، وأمسك خميسة من مؤخرتها وهي تحاول أن تعدل ملابسها، وألقى بها أرضاً، فوقعت على ظهرها... فجثم فوقها... وضربها على وجهها... ثم رفع ثوبها، وشد لباسها وهو يبصق في وجهها...

- إيه اللي جايبك هنا الليلة دي يا بنت الكلب؟

*****

٣

صوت الشيخ عبد الستار يخترق ضباب الفجر المتكاثف بالأذان الإلهي يؤديه صوت بديع... يُفتح الدكان من الداخل يخرج سمير الغنيمي...

– الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا وإليه النشور!

يغلق باب الدكان... يدخل البيت... يتوضأ... يخرج... يجد فتحي أمام الباب... يتهلل وجه سمير:

– فتحي ! ما شاء الله... أنت خارج لصلاة الفجر؟

ببؤس مهزوم يقذف فتحي الكلمات:

– لا... أنا داخل المعتقل أتخمد.

– بدعاء صادق من القلب يقول سمير:

– ربنا يكتب لك الهداية يا أخي.

بسخرية متناهية يرد فتحي:

– مع السلامة يا مولانا.

يتركه سمير ويسرع حتى لا تفوته صلاة الفجر... يتردد فتحي في دخول البيت... لولا التعب والحاجة إلى أية نومة لما دخل هذا المكان المقيت.

البيت مكون من دورين غير الدور الأرضي... كل شقة مكونة من حجرة وصالة ومطبخ ودورة مياه... وكلها ضيقة وخانقة... يوجد

فى الدور الأرضي دكان الخضروات والفاكهة الذي يمتلكه عيد الغنيمي والد فتحي؛ ومنذ أطلق سمير لحيته، وأصبح يواظب على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها بالزاوية التي أقامها إخوانه على أطراف القرية، مطلة على ترعة المحمودية ليصلوا فيها وحدهم... منذ ذلك اليوم... وهو ينام في الدكان... و يبيع الهريسة أثناء النهار أمام المدرسة الابتدائية في الصباح، وأمام الدكان ظهرًا، وأمام مقهى القرية في المساء... توجد حجرة الجدة خلف الدكان ودورة المياه... تعيش الجدة في تلك الحجرة مع سامح وسناء حفيديها الطفلين ابني أصغر أولادها عثمان الغنيمي الذي يعمل الآن في ليبيا... فقد تزوج عثمان مرغمًا بعد أن ضبطه أخو زوجته يطاردها بإلحاح وسماجة، وصلت لمحاولة اغتصابها ذات ليلة خلف الجامع، فكان ينتقم منها بالضرب المستمر ليلاً ونهارًا، ثم طلقها، فتركت له الولد والبنت، وتزوجت بعد انقضاء عدتها بأسبوعين، ووجد هو عقد عمل فسافر إلى ليبيا وترك طفليه مع أمه.

لم يرسل عثمان الغنيمي نقودًا لأكثر من شهرين، فاستدانت أمه من بعض أهل القرية بعد أن رفض ابنها الأكبر عيد الغنيمي إقراضها بحجة احتياجه إلى كل مليم من أجل كوم اللحم الذي ابتلاه به ربنا، وعملت الأم (فرشًا) صغيرًا تبيع فيه اللب والسوداني والعسلية، وتصرف من الإيراد القليل على نفسها والطفلين،

وتسدد القرض، وترسل لابنها الخطاب تلو الآخر، تذكره أن له أمًا وطفلين بحاجة إلى معونته.

بدأ عثمان الغنيمي يرسل مبلغًا محترمًا إلى أمه كل شهر، فباعت الفرش، وسددت كل ما عليها من ديون، وتفرغت للاعتناء بالطفلين اللذين ظهرت عليهما آثار النعمة... ملابس فاخرة... وأحذية جلدية... وحقائب جديدة للمدرسة.

رائحة البيت لا تطاق... كأنه قبر مغلق منذ عشرات السنين ثم فُتح فجأة... صعد فتحي الغنيمي السلم الضيق في الظلام الدامس معتمدًا على حفظ ذاكرته لجغرافية المكان... فتح باب شقته... أمسك بطنه بيده بعنف حتى لا يتقيأ معدته بما فيها... رائحة إخوته وأمه وزوجة أبيه وفسائهم من كثرة أكل البصل قاتلة...

سمع صوت أقدام تهبط من الدور الثاني قبل أن يغلق الشقة... إنه أبوه عيد الغنيمي كان عند نجية زوجة عمه الأوسط عبد العزيز... وقف الأب والابن وجهًا لوجه أمام باب الشقة... بصق فتحي في وجه أبيه... انفرجت شفتا الأب قليلاً ثم انغلقتا، وتهدلت ملامح وجهه الممصوص ببلاهة مدمن حشيش ونسوان ثم مسح وجهه، وانفلت داخلاً إلى حجرته، وأغلقها على نفسه.

تعثرت قدما فتحي في الأجساد الملتحمة ببعضها مغطية أرضية الصالة والمطبخ... ثلاثة عشر ولدًا وبنتًا، تتراوح أعمارهم بين الرابعة

عشر والستة أشهر... إنهم إخوته الأشقاء وغير الأشقاء... خربشت عقل فتحي الغنيمي فكرة ساخرة:

"ليس من المستبعد ماداموا ينامون هكذا دائمًا أن يولد في عائلتنا طفل أكون عمه وخاله في نفس الوقت.".

أمه الطويلة النحيفة تجلس القرفصاء مسندة رأسها إلى باب دورة المياه، يتعالى شخيرها في انسجام بديع مع شخير بقية أفراد العائلة... يأتيه صوت أبيه وزوجته البدينة القصيرة من الحجرة فهذه ليلتها... "ألا يشبع هذا البغل أبدًا؟"

فقد الرغبة في الراحة، وطار النوم من عينيه، وخرج من الشقة هاربًا... سمع صوت نجية زوجة عمه عبد العزيز وهو يهبط درجات السلم تناديه:

- يا فتحي؟
- عاوزة إيه؟
- مش عارفة أضبط خرم أنبوبة البوتاجاز... تعالى اضبط الخرم وركب لي الخرطوم.
- بصق عليها... وهبط درجات السلم وهو يصرخ فيها:روحي اتخمدي... الله يخرب بيت شيطان أهلك.

تقترب نجية حثيثاً من سن اليأس... ولم تنجب... سافر زوجها عبد العزيز إلى ليبيا بعد أخيه عثمان بفترة لإصرارها على تحقيق الثراء والرفاهية والتمتع بمباهج الحياة مثل بقية الناس... وهو

يرسل إليها ما يكسبه أولاً بأول لتدخره حتى يعود ويشتري قطعة أرض يبني فوقها بيتًا كبيرًا وسوبر ماركت... لكنها حتى الآن لم تدخر قرشًا واحدًا... ملأت دولابها بالفساتين، وقمصان النوم، والملابس الداخلية، واشترت موبيليا جديدة، وفرشت الشقة بالسجاد، وكست حيطان دورة المياه بالسيراميك، واشترت علب المكياج لتعاونها على الاحتفاظ بجمالها أطول فترة ممكنة قبل أن يذبل، واشترت أنواعًا عديدة من العطور غالية الثمن، وكثر خروجها وذهابها إلى الإسكندرية وحدها... يوميًا تقريبًا... ذات مرة جاء أخوها من الغربية لزيارتها، وكانت قد غابت عن البيت عدة أيام مدعية أنها ذاهبة لزيارة أهلها!

شد فتحي باب البيت خلفه بعنف... وأسرع مبتعدًا عن البيت وهو لا يعرف أين يذهب... ترك نفسه لقدميه تذهبان به حيثما تريدان!

*****

٤

عادت خميسة إلى حجرتها بعد أن فعل بها إبراهيم علوان صاحب الأرض وتركها، كانت طوال الطريق تضحك في نفسها وقد تعلو ضحكتها أحيانًا من تغفيل إبراهيم علوان الذي لم يلاحظ أن عليها العادة الشهرية!

غسلت وجهها في دورة المياه المشتركة للبيت الذي تقطن إحدى حجرات دوره الأرضي ودخلت حجرتها واستعدت للنوم... دخل زوجها سعيد الشضلي مترنحًا...

- مساء النجف يا خمسمس.
- أنت جيت يا منيل على عينك
- جيت لك يا جميل.

ورمى بنفسه فوقها، فصدته بيدها بعيدًا عن السرير، فوقع على الأرض...

- جاتك القرف... مش حا تبطل الهباب اللي بتطفحه ده؟

جلس سعيد الشضلي على الأرض متربعًا، ورفع عينيه المحمرتين إلى خميسة بصعوبة، وانفرجت شفتاه عن أسنان صفراء بعضها متهدم، وقال ساخرًا:

- ده هوه اللي بيخليكي حلوة في عنيه يا خمسمس!

بصقت في وجهه، واعتدلت في جلستها فوق السرير وهى تسبه:

- أنا حلوة غصب عنك يا عرة الرجالة... يا زبالة الجدعان... يا ميت ندامة على حظي المهبب اللي رماني في إيد خيخة زيك!

انطبق جفنا سعيد الشضلي، ونام جالسًا، ثم وقع على الأرض، فصمتت خميسة... لا فائدة من الكلام... لقد باعها أبوها لسعيد الشضلي في جلسة حظ وكوتشينة وها هي تدفع الثمن، وقبل أن يأخذها التفكير في حياتها قررت أن تنام، فلا جدوى من تعكير الدم والمزاج من جراء التفكير في زوجها الحرامي الذي لم يعاشرها إلا مرات قليلة في بداية الزواج، ثم فقد رجولته في معركة سكارى إذ ضربه أحدهم في خصيتيه بركبته ضربة قاتلة، فأخذ يؤكد لها رجولته بالضرب والإهانة كل ليلة حتى وجدت نفسها تمسك الشبشب وتضرب زوجها به بعنف هستيري، ومنذ تلك الواقعة اعتدل الميزان، واتضح من هو رجل البيت الحقيقي، وعرفت خميسة مرسي الجن زميل زوجها... أحبته بصدق، وعوضها بفحولته عن الرجل الذي فقدته، ثم قُبض على مرسي الجن أثناء قيامه بمحاولة سطو على شقة كوثر صاحبة الكوافير.

هل سعيد الشضلي هو الذي أبلغ عنه ليبعده عن خميسة؟

إنها غير متأكدة حتى الآن... لكنها بعد أن فقدت مرسي الجن عرفت الطريق الآخر... قررت ألا تقصر نفسها على رجل واحد...

بعد مرسي لن يملأ عينها أحد، فكل الرجال سواء... مجرد وسائل للحصول على المال وإطفاء نار الجسد... إنها لن تحب أحدًا حتى يخرج مرسي الجن من السجن فتقصر نفسها عليه وحده.

*****

٥

هل يتغير الناس فجأة؟

إن ما حدث لسمير الغنيمي لا يبدو مجرد تغير... إنه انقلاب شامل من النقيض إلى النقيض... ولكن هل حدث له ذلك فجأة؟

الذين يعرفون سمير الغنيمي ويعيشون معه، يعتقدون أنهم استيقظوا ذات صباح فوجدوا إنسانًا آخر غير سمير الذي يعرفونه؛ لكن الحقيقة أن الطفرة شيء مستحيل وغير طبيعي... لقد حدث كل شيء بالتدريج... لكنهم لم يلاحظوا تغير الوجوه والسمات والألقاب والكلمات والإيماءات... وكان من المستحيل بالتالي أن يلاحظوا التغيرات التي كانت تحدث بداخل النفس... لم يعد سمير كابتن فريق القرية الحريف العصبي الذي يقضي معظم وقته في لعب الكرةوالذي أخرج عضوه الذكري للحكم في إحدى المباريات لأنه طرده من المباراة... ولم يعد سمير مطرب الأفراح الذي كوَّن فرقه يحيي بها أفراح القرية والقرى المجاورة... لقد أصبح الأخ سمير... نبتت له لحية صغيرة بدأت بشعيرات متناثرة أسفل الذقن وعلى الخدين، ثم تكاثفت شيئًا فشيئًا حتى طوقت وجهه.

لم يعد أصدقاؤه الكابتن ميمو شلبي، وفريد موسى عازف الأورج... أصبح يصادق الأخ كريم بسطاوي، والأخ رشدي ونيس، والأخ عبد الواحد جودة!

تغير قاموس كلماته أيضًا، فتوقف عن لعن الأبوين، وسب الدين، والشخير... أصبح يحوقل، ويسترجع كلما وجد نفسه في حالة غضب قد تفقده السيطرة على نفسه، وعرف طريق المسجد... ليس مسجد القرية القديم المتهالك... بل الزاوية التي بناها الإخوة على ترعة المحمودية ما بين القرية القديمة والقرية الجديدة...

لقد جُرفت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية... وبُنيت المصانع والبيوت والدكاكين... وجاء طوفان من البشر من الإسكندرية... وأصبح في القرية محل للذهب... وكوافير... وسوبر ماركت... وفرن بلدي... وفرن أفرنجي.

يجتمع الإخوة فى الزاوية عند كل صلاة بثيابهم البيضاء والطواقي الشبيكة، يؤدون الفريضة، ويصلون السنة، فيطيلون الصلاة، ويُلقي أحدهم درسًا بعد انتهاء الصلاة، ويناقشون بعض المشاكل العامة والخاصة.

يريد الأخ عادل إعداد شقته كي يتزوج... تبرع أحدهم بتركيب البلاط، وتبرع آخر بأعمال النقاشة، وتبرع ثالث بتركيب الأدوات الصحية، وتبرع رابع بتركيب الكهرباء... يعاني الأخ صفوت من ضائقة مالية... تبرع كل منهم بما يستطيع من مال... وهكذا... ويلتقي جميع الإخوة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع في قطعة أرض بور جهزوها لتصلح ملعباً، ليلعبوا كرة القدم كي ينشطوا

أجسامهم، ويحافظوا على لياقتهم، ويحتفظوا بقوتهم التي قد يحتاجون إليها للجهاد في سبيل الإسلام ذات يوم.

ولا يمنع الإخوة أحدًا من الصلاة معهم في الزاوية... القلة التي جازفت بالصلاة معهم مرة لم تعد مرة أخرى بسبب الإطالة في الصلاة... والدرس الطويل الذي بعدها... كذلك لا يمنع الإخوة شباب القرية من اللعب معهم يوم الجمعة؛ بل يحرصون على الاشتراك في الدورات الرياضية بالمنطقة، وينظمون أحيانًا دورات كرة قدم تشترك فيها فرق من القرى المجاورة لأن الاحتكاك في مثل هذه الأجواء الودية يساعدهم على نشر الدعوة بين الشباب، وهداية إخوة جدد إلى طريق الإيمان الحق... لكن من يلعب معهم يجد أن عليه أن يضبط نفسه، ولا يترك أعصابه تفلت منه، فلا يشتم، ولا يسب، ولا يبصق في وجه الفريق المنافس ولا يتعارك معهم.

تسبب سمير في معركة كبيرة فى إحدى المباريات، سالت فيها دماء عدد من اللاعبين لأنه اعترض على قرار الحكم وأمسكه من رقبته، وألقى به على الأرض، وأخذ يشتمه ويضربه.

أخذ الأخ كريم بسطاوي سمير من يده بعد أن تدخل الإخوة وفضوا المعركة، ومشى معه بين الأراضي الزراعية وهو يحدثه بلين ورفق حتى هدأت نفس سمير تمامًا، وشعر بالراحة لحديث كريم.

كان الأخ كريم بسطاوي يتمتع بشعبية كبيرة بين شباب المنطقة جميعًا ويكسب قلوبهم بسرعة عجيبة... إنه طالب بكلية الهندسة... أسمر... نافذ النظرات... ملامحه توحي بالطيبة والثقة، يحرص على معاملة الآخرين وفقًا لتعاليم الإسلام... لا يعرف سمير الغنيمي هل مشى في ذلك اليوم ساعة أم ساعتين أم أكثر مع الأخ كريم بسطاوي... فقد نسي الزمن تمامًا... لم يتكلم كثيرًا... أصبح مجرد أذنين تلتهمان كلمات الأخ كريم الذي يكثر من الاستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وحكايات الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، بدأ بعدها سمير الغنيمي يتردد على الزاوية، وينتظم في آداء الفروض، ويحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ويحرص على الاستشهاد بما يحفظه في كل مناسبة، ثم أخذ سمير يعتزل أسرته... كان كلما اقترب من الإخوة واندمج معهم أكثر ابتعد بنفس القدر عن جو بيت العائلة، ولم يترك معسكرًا أو رحلة من الرحلات التي ينظمها الإخوة إلا وسافر معهم فيها، فسافر إلى الإسماعيلية، والفيوم، ومرسى مطروح... كان يغيب أسبوعًا أو أسبوعين وأحيانًا أكثر.

يتم فى هذه المعسكرات إعادة بناء الشباب نفسيًا وبدنيًا... يمارسون السباحة، وكرة القدم، والمصارعة، والكاراتيه... يستمعون إلى محاضرات متنوعة في أمور الدنيا والدين... يصلون بالنهار...

ويقومون بالليل... ويقتربون من بعضهم أكثر فتزيد أواصر المحبة بينهم... ويصبحون إخوة بحق.

كان سمير الغنيمي يقف أمام المدرسة الابتدائية يبيع الهريسة للتلاميذ عندما ظهرت أمامه فجأة بوجهها القمحي ذي المكياج المتقن، وعينيها العسليتين الواسعتين، وشعرها القصير المكوي، وجسدها المكتنز بجمال غريزي فياض، لا تخفيه بل تزيده وضوحًا الجيب القصيرة والبلوزة النصف كم الخفيفة ذات فتحة الصدر التي يبدو منها بداية النهر المقدس بين الثديين المنتصبين إلى الأمام في عزة وشموخ أنثوى مهيب... كانت تمسك أختها الصغرى سها في يدها حين قالت له بصوت به بحة مثيرة:

- إديني حتة هريسة.

شدتها سها من جيبتها القصيرة الضيقة، وطالبتها بقطعتين، فقالت نونا لسمير بدلال:

– أمري إلى الله... إديني حتتين يا شيخ.

ثم قالت وهو يقطع لها الهريسة:

– خليها ثلاث حتت... أنا كمان حا آكل من يدك.

وضحكت... رنت ضحكتها المبحوحة... احتقن وجه سمير، وشعر بأطراف أذنيه تلتهب وهو ما يحدث له عند الشعور بالحرج الشديد، أو الغضب الأشد... دفن سمير وجهه في صينية الهريسة، ولف لنونا طلبها، وناوله لها، ثم أخذ منها النقود... كل هذا دون أن

يرفع عينيه من الصينية؛ وداخله يستغفر، ويحوقل، ويسترجع، ويستعيذ الله من الشيطان الرجيم... مضت نونا بأختها لتدخلها المدرسة عندما دق جرس الدخول، ثم عادت إلى سمير مرة أخرى... لم تقف أمامه بل وقفت بجانبه بينهما أقل من شبر واحد، تستطيع أنفاسها الحارة أن تضرب وجهه بلا رحمة، وقالت بمزيد من الدلال وهى تميل عليه:

– إديني حتة تانية يا شيخ... هريستك حلوة وعجبتني.

قطع لها قطعة الهريسة، وأعطاها لها دون أن ينظر إليها بل لعنها في سره، وتمنى أن يأخذها أي شيطان بعيدًا عنه، فرائحة العطر المستورد النفاذ الذي يتضوع من جسمها يحتاج إلى قوة الجبل لمقاومته... لم يكن هذا طبع سمير الغنيمي... لقد كان يغازل البنات، ويطاردهن، ويذهب بهن إلى بيوت خاصة معروفة في القرية، أو يأخذهن إلى أماكن معينة في الأراضي الزراعية عند صخرة العامية، أو بين أشجار الكازورين، أو في السراية المهجورة... لكنه أصبح الآن يخشى على نفسه من الفتنة... والبنت فاتنة فعلاً، ويبدو أنها وضعته في رأسها فكل يوم توصِّل أختها إلى المدرسة، وتشتري منه الهريسة، وتحاول أن تجره في حديث معها وهو يصدها بقوة، ويزداد خوف سمير الغنيمي من نونا كلما ازدادت هي إمعانًا وجرأة، وكلما بدت أكثر صراحة في التعبير عما تريده منه... وتضخم هذا الخوف إلى فزع هائل عندما عرف كل شيء عن نونا!

إنها تعيش في شقة صغيرة مع أختها وأمها، تصرف عليهما من عملها في الكوافير... تحب أن تعيش حياتها بالطول والعرض... لا يهمها كلام الناس... يهمها فقط أن تحقق رغباتها... أن تعتصر لذة اللحظة التي تعيشها حتى آخر قطرة وأن تسكر بها حتى الجنون... لا شيء يقف في طريقها إذا رغبت... وإذا أرادت لا تتنازل عما تريده أبدًا... ويبدو أن نونا تريد سمير الغنيمي بشدة... تريده لأنه يصدها... يمتنع عنها خلف لحيته... يتحصن منها بألفاظ مدغمة يرددها بصوت خفيض كلما رآها... أصبحت المسألة مجرد تحدٍ لها... لكرامة أنوثتها... لقدرتها الغريزية... لجاذبيتها كامرأة...

سمع سمير الغنيمي ذات ليلة دقات متواصلة خفيفة على باب الدكان، فهب من نومه فزعًا... ظن أن شيئًا خطيرًا حدث بالبيت... فتح الباب بسرعة... وجدها أمامه... نونا بكامل زينتها... يضفي عليها الليل والرغبة المتأججة نارها في الأعماق من السحر والجاذبية والبريق ما لا يمكن مقاومته.

اندهش لوجودها... لم تعطه فرصة ليقول أو يفعل شيئًا... دخلت الدكان بسرعة، وطلبت منه أن يغلقه، وأغلقته هي بنفسها عندما رأته لا يتحرك، وألقت بنفسها في صدره وهو ما زال مندهشًا لا يتحرك، وأخذت تبكي وهي تلتصق به أكثر... قالت أنها ضاقت بحياتها كلها... وأنها تشعر بفراغ رهيب... ووحدة لا نهائية... وأن الحياة لا طعم لها ولا معنى... وأنها تفكر كثيرًا في أن تنتحر،

وتتخلص من حياتها التافهة... ولا أصدقاء لها رغم معارفها الذين لا يحصيهم عد... وأنها تريد إنسانًا تشكو إليه ضيقها ومعاناتها وآلامها المستمرة... تريد صديقًا يخفف عنها... ويمسح دموعها... وأنها لم تفكر إلا فيه هو... فجاءت إليه بدلاً من أن تلقي بنفسها من البلكونة.

كان يستمع إليها مذهولاً... فقد القدرة على التفكير المنظم... وتشوشت أحاسيسه... واختلطت مشاعره... فلم يدر ماذا يفعل أو يقول... بل لم يستطع أن يحدد مشاعره وأفكاره تجاه ما سمع... وما يحدث... وكانت يداها لا تكفان عن الحركة الناعمة الخبيرة أثناء الكلام... تمسح خده وشعره... تدلك يده وتضعها في حجرها، وتضغطها،وتزداد التصاقًا به، فارتفعت حرارة جسديهما إلى ما فوق درجة الغليان، وعندما ارتفع صوت الشيخ عبد الستار يؤذن لصلاة الفجر وينادي بصوت جميل... "**الصلاة خير من النوم... الصلاة خير من النوم...**" اكتشف سمير الغنيمي أنه بداخل نونا، فبكى حتى تساقطت دموعه فوق شفتيها، فلحستها بلذة، واستغفر الله بندم وهي تشده إليها أكثر، وازداد بكاؤه، وانهمار دموعه؛ بينما يتوغل جسده في جسدها أكثر وأكثر... وعندما اكتفت تركته، وقامت، وذهبت... هرول سمير إلى ترعة القرية... رمى نفسه فيها بملابسه... شعر أنه يستحم في الدموع... عاد إلى الدكان... بدل ملابسه... أسرع إلى الزاوية... أدى الفريضة مع إخوانه.

جاءته سها أمام المدرسة الابتدائية لتشتري منه قطعة هريسة... لم تكن نونا معها... حمد الله، ومسح دمعة أفلتت منه، وتمالك نفسه بصعوبة حتى لا ينخرط في البكاء.

سمع فى الليل نفس الطرقات على باب الدكان... الطرقات الخفيفة المتتابعة التي تناديه بالرغبة المحرمة... لم يفتح... تكوم في بعضه كطفل فزع يخشى أن تلتهمه أمنا الغولة ذات الأسنان الحديدية الطويلة كالمخالب... سد أذنيه بيديه... ألحت الدقات على الباب... سرت في بدنه رعشة خفيفة... لكنها هزته... شعر ببرودة تضغط جسده... قام غاضبًا ثائرًا على ضعفه... قرر أن يضربها... ويطردها حتى لا تعود إليه بلعنتها مرة أخرى... وعندما فتح الباب احتوته الفتاة بسرعة غريبة للغاية... وظلت تأتيه لعدة ليالٍ... ثم انقطعت عنه فجأة... لقد أثبتت لنفسها أنها هي هي نونا... الأنثى الطاغية... ذات الجاذبية التي لا تقاوم... الأنثى القادرة على فعل كل شيء... والحصول على كل ما تريد... وبدأ الانتقام... نعم ستنتقم منه... من هذا الشيخ الذي كان يتمنع ويتعالى.

مرت أول ليلة على سمير الغنيمي بدون نونا رهيبة... كانت تتنازعه مشاعر متباينة... شعر أنه يتمزق... يستغفر الله على ضعفه وذنبه... ويحمده لأنها لم تأت... وتكويه الرغبة بسياط من لهب... وفى النهاية انفجرت غريزته بداخل جسده كقنبلة مدمرة... ضرب الحائط بقبضته... وصرخ... ثم خرج لصلاة الفجر ذاهلاً؛ وعندما

جاءت سها لتشتري الهريسة أعطاها لها بدون مقابل، وبذل جهدًا جبارًا لكي لا يسألها عن نونا... لكن وطأة الليلة الثانية كانت عليه أشد وأنكى... شعر أنه على حافة الهوس أو الجنون كمدمن المخدر الذي مر ميعاد حقنته ولم يتناولها... زارته نونا في الأحلام... ورآها وهو مفتوح العينين تخرج له من بين أقفاص الفاكهة بقميص نوم شفاف... ترقص له رقصات مثيرة جدًا... ثم تنزع عن نفسها القميص... وتأخذه في حضنها... وتسبح به في نهر من عسل...على شاطئه أشجار ذهبية ثمارها من ياقوت أحمر!

لم يستطع أن يمسك لسانه في النهار، فأعطى سها قطعة كبيرة من الهريسة وقال لها:

– قولي لأبلة نونا الأخ سمير بيسلم عليكي.

ضحكت نونا ضحكة انتصار كبيرة من أعماقها عندما أبلغتها سها الرسالة لكنها لم تذهب إليه وفي اليوم التالي كان سمير يقف أمام باب الكوافير ينتظر خروج نونا من العمل!

رأته نونا ينتظرها فتعمدت أن تتأخر عن موعد خروجها اليومي ساعة.

سار وراءها بحذر عندما خرجت؛ حتى لا يلاحظ الناس شيئًا... تعمدت إغاظته... فلم تذهب إلى بيتها مباشرة... بل سارت في الشارع الرئيسي للقرية... مرت أمام المقهى... تهادت وتثنت ليبدو جمال عجيزتها وليونة جسدها، وتلقت المكافأة الفورية صفيرًا ومديحًا من

الشباب الجالس في المقهى... كان الغضب يفور مرجله بداخله لكنه تماسك حتى ذهبت إلى بيتها، ودخلته، تردد في الدخول خلفها... وقفت خلف شباك حجرتها... رأته ينتظرها في الناحية المقابلة... يقاوم رغبة جامحة في الصعود إليها... فقررت أن تنزل إليه قبل أن يصعد هو... كان قد دخل البيت بالفعل... تقابلا في بير السلم، فقالت له وهي تحاول أن تكون غاضبة:

– عاوز إيه يا سمير؟

قال بلهفة ورغبة لا حدود لها:

– عوزك... ليه غبتي عني؟

بلا مبالاة أجابته:

– لا مفيش سبب.

قال وهو يحاول أن يمسك يدها:

– أنا قصرت معك في حاجة؟ محتاجة فلوس؟

سحبت يدها من يده وهى تقول:

– أنا مش عاوزة حاجة!

قال بإصرار:

– وأنا عاوزك... عاوزك بجنون... أرجوك... حاستناكي الليلة...

ترددت قليلاً ثم قالت مراوغة:

– ما أعرفش إن كنت حأقدر آجي وللا لأ.

وهو يكاد يبكي:

- أرجوك... حاولي... حاستناكي.

قالت لتنهى الحديث:

- حا أحاول.

شدها... قبلها... انفلتت من بين ذراعيه بسرعة، وصعدت السلم مهرولة بمرح وهي تبتسم؛ بينما خرج هو من البيت مطأطئ الرأس يلعنها ويلعن ضعفه، وانتظرها في الليل... يخشى ألا تأتي... ويخشى أن تأتي... وعندما سمع الدقات التي تعرفها أذناه جيدًا قفز... وفي لمح البصر فتح الباب... دخلت... أغلق الباب بسرعة... لم تلق بنفسها في صدره... فشدها إلى صدره... كانت تتكلم ببرود... وجسدها كالمتصلب لا يلين... قالت إنها فكرت جيدًا وكثيرًا... لا معنى لهذه العلاقة الخطيرة... سمعتها أثمن شيء عندها... وهو أيضًا لديه سمعته التي يجب أن يحافظ عليها... وقالت إنهما يجب أن يفترقا تجنبًا للمشاكل...

لم يكن واعيًا تمامًا لما تقول... كان جسده محمومًا... عقله كله مركز في يديه اللتين أخذتا تدلكان كل أجزاء جسدها... نزع عنها ملابسها... كانت مستسلمة وممتنعة في آن... نزع ملابسه... وعندما بدأ جسده يهدأ فوق جسدها قالت مرة أخرى:

- دى آخر مرة... يجب أن نفترق.

انتفض... ألمها... شدته إليها... عرض عليها الزواج... رفضت...

– ما عندكش شقة... ولا دخل محترم يمكن أن نعيش به الحياة اللي أحلم بها لنفسي.

توغل بداخلها أكثر ليشعر بأنه يمتلكها دون جدوى... كان في كل لحظة يشعر بأنه يذوب بين أصابعها.

– سأحقق كل ما تريدين.

لم ترحمه...

– مش حا تقدر تحقق لي شيئًا.

شعر بأنه مهزوم... أعطاها نفسه أكثر... أخذته بكبرياء وزهد!

*****

٦

انتهى سمير الغنيمي من صلاة الفجر بالزاوية، فجلس منفردًا في ركن، ورفع يديه وعينيه إلى السماء، وأخذ يدعو الله بصدق وحرارة أن يتوب عليه ويهديه، ويقويه على ضعفه... اخضلّت لحية سمير بالدموع وهو منهمك في مناجاته مع ربه، وعندما انتهى من دعائه تلفت حوله فلم يجد إلا كريم بسطاوي... نظر إليه كريم بحنو وهو يجلس بجانبه...

- تقبل الله يا أخ سمير.

ومد له يده، فسلم عليه سمير...

- تقبل الله منا ومنكم إن شاء الله.

التقت عيناهما... كان كريم يشعر بأن سمير بحاجة إلى شخص يتحدث إليه... لذلك انتظره بعد الصلاة... أحس سمير بالمشاعر الطيبة التي تبدو في نظرات كريم وصوته وطريقة تعامله... قال سمير:

- أريد أن أتحدث معك في أمر خاص ومهم.
- أنا تحت أمرك.
- ليس هنا... في أي مكان آخر.
- تعالَ معي.

وقاما معًا... ذهبا إلى منزل كريم بسطاوي... حجرة الأخ كريم صغيرة مليئة بمجلدات الكتب العربية والإنجليزية، وعدد هائل من شرائط الكاسيت عليها صور مشايخ يعرف سمير معظمهم...

– أجلس يا سمير.

جلس سمير حائرًا لا يعرف ماذا يقول، ولا من أين يبدأ... هل يقول له إنه كان يلتقي بنونا كل ليلة وعندما يودعها يذهب إلى الزاوية ليصلي الفجر مع الإخوة؟ هل يقول له إنه كاد يجن أو ينتحر عندما انقطعت نونا عن زياراتها الليلية له في الدكان؟ هل يقول له إنه عرض عليها الزواج وأنها هي التي رفضته؟ تراقب عينا كريم النافذتان سمير... لم يطلب منه كريم أن يتحدث، يقرأ في ملامح وجهه الممتقعة الحائرة وفى نظرات عينيه التي لم تستقر منذ دخلا الحجرة وفى تشبيكه لأصابع يديه بعصبية... يقرأ كريم مدى حساسية الموضوع وصعوبة بدء الكلام فيه... يستشف معاناة سمير الذي ما زال يناقش نفسه وقد يتراجع عن البوح في آخر لحظة... لم يرد كريم أن يتطفل أو يجبر سمير على الحديث بالإلحاح حتى لا يكذب عليه... أراده أن يتكلم بدون أية ضغوط ليكون صادقًا تمامًا معه...

انتفض سمير الغارق في أفكاره ومشاعره عندما سمع طرقات على الباب... قام كريم... ثم عاد بصينية عليها كوبا شاي...

– اشرب يا سيدي الشاي بالنعناع وقل لي ما رأيك؟

أمسك سمير كوبه... تابع الدخان المتصاعد من الكوب... نسي ما جاء من أجله إلى حجرة كريم... نسي نفسه وكريم وكل شيء... ثم أفاق على صوت كريم المبتسم:

– ما رأيك في الشاي؟

وجد سمير أن رغبته في البوح بما حدث تفوق قدرته على الكتمان... تحدث... وتحدث... وتحدث... وكريم لا يقاطعه... تركه يفضي بمكنون نفسه حتى انتهى تمامًا فشعر كمن جرى عدة كيلومترات بلا توقف... فانهار وبكى... احتضنه كريم بأخوة غامرة وحنو... هدأ من روعه؛ لكنه لم يعلق على ما قاله سمير... لم يلمه... لم يوبخه... لم يتحدث فيما جرى... قال جملة واحدة:

– لابد أن تتزوج.

سأله سمير وهو يشعر كالغريق الذي وجد قارب نجاة:

– أتزوج من؟

قال كريم بتأكيد:

– تتزوج أختًا مسلمة جديرة بك... هذا هو الحل الوحيد لمعاناتك.

حاول سمير أن يشرح ظروف حياته لكريم:

– لكن ظروفي...

قاطعه كريم بحسم من أخذ الأمر على عاتقه:

– دع الأمر لي، وربنا ييسر.

جاء كريم إلى سمير في اليوم التالي أمام المدرسة الابتدائية ووجهه مبتسم كمن يحمل بشرى طيبة...

- لقد وجدت لك زوجة!
- من هي؟
- أختي هند.
- أختك؟
- نعم.
- وهل هذا معقول؟
- ولم لا؟
- أنت تعرف كل شيء عني!
- أنا أعرف أن معدنك طيب... وأنك تبت إلى الله عز وجل توبة نصوحًا... وهذا هو المهم.
- لكن هي...
- أنا كلمتها عنك... وحا تقعد معك اليوم لما ترجع من المدرسة ليقول كل منكما رأيه النهائي.

*****

جلس سمير في حجرة كريم بسطاوي في نفس المكان الذي جلس فيه من قبل، يجتاحه طوفان من المشاعر القلقة والأسئلة الحائرة... هل سترضى به هند... إنها في السنة النهائية... شهور وتحصل على دبلوم التجارة وهو يقرأ ويكتب بصعوبة؟ وما شكلها؟

حجمها؟ لقد رآها تحضر مع كريم عدة مرات في الدروس الدينية التي تُلقى بالزاوية؛ لكنه لا يستطيع أن يعرفها؛ كما لا يمكنه أن يعرف أية واحدة من الأخوات اللاتي يحضرن الدروس حيث توضع ستارة تفصل بين الإخوة والأخوات... كما أن هند ترتدي - كبقية الأخوات - ملابس فضفاضة جدًا بحيث يصعب أن تعرف إن كانت سمينة أم رشيقة؛ كما تلبس خمارًا، يغطى وجهها وبه ثقبان أمام العينين... لكنه لا يعرف لون عينيها لأنها تغطيهما بنظارة شمس... كما تلبس قفازًا في يديها!

تساءل سمير بينه وبين نفسه والقلق يوشك أن يفتك به... هل تعرف هند كل شيء عنه؟هل حكى لها كريم عن علاقته بنونا؟ هل سيعجبها شكله؟!عند هذا السؤال بدأ سمير يشعر بنوع من الراحة والثقة فهو واثق من هذه النقطة جدًا... إنه طويل... متين البنيان... بارز الصدر... قوي... أسمر... أسود العينين... حلو التقاطيع... واللحية جعلته وقورًا مهيبًا... كان سمير بدأ يعجب بنفسه عندما دخل عليه كريم الحجرة...

– ثواني وستأتي هند بالشاي.

ودخلت هند حاملة صينية الشاي... كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا أنيقًا... وتغطي شعرها بمنديل حريري... نحيفة... سمراء... متوسطة الطول... شعرها أسود فاحم ناعم... عيناها خضراوان... لها نفس ملامح الكريم الهادئة الطيبة... شعر سمير أن هند دخلت قلبه،

فازداد القلق بداخله... سلمت عليه بتحية الإسلام... وجلست... حدثته... انطلقت في الحديث بأدب واحتشام... بدت كعقلية متفتحة واثقة من نفسها... شديدة الإيمان بدينها وربها... محبة لكريم الذي تعتبره مثلها الأعلى.

تحدث معها وهو يشعر أنه يعرفها من قبل... وأن بينهما علاقة طويلة عريضة وعميقة وعشرة... وكان هذا نفس شعور هند أيضًا... أخبرته هند بصراحة، وبدون حرج من وجود كريم أنها ارتاحت له... وأنها تغفر له ماضيه مع نونا... وأنها سوف تساعده بكل جهدها لكي يزيد الإيمان في قلبه!

كان كريم قد حدث هند عن سمير وحكايته مع نونا، وأكد لها ثقته الكبيرة في قوة إيمان سمير رغم زلته؛ كما أكد لها أنه يتمنى أن توافق على الزواج من سمير لأنه شاب طيب ،وسوف يحافظ عليها بإخلاص، وكان كلام كريم بالنسبة لهند شيئًا مقدسًا... تثق في إيمانه... وذكائه... وقدرته على التفكير الصائب؛ لذلك كانت مهيأة لقبول سمير خاصة وأنها تخيلت الأجر الذي سوف تناله من الله لوقوفها بجوار شاب مسلم، ومساعدته على التخلص من الرذيلة، وعدت نفسها لذلك من المجاهدات في سبيل الله، وساعدت وسامة سمير في انجذاب هند إليه... ابتسم كريم سعيدًا عندما رأى التجاوب بين هند وسمير، وأخبره أنه حدَّث أحد المقاولين لكى يعمل معه سمير... وقد وعده المقاول خيرًا.

خرج سمير من عند كريم وهو لا يطيق ملامسة أقدامه للأرض... ولا عجزه عن الطيران... كان في منتهى السعادة... وجد له كريم عملاً أفضل من بيع الهريسة، ورضيت به فتاة مسلمة متعلمة كهند... شعر سمير بأن الله قد تاب عليه ومد له يده بسخاء... رأى نونا قادمة في الطريق... دخل في شارع جانبي وألقاها خلف ظهره.

*****

٧

وقف سعيد الشضلي أمام مرآة دولاب الصيني المكسور يحلق ذقنه بعناية بالغة وببطء، ثم شد بالملقاط بعض شعيرات متناثرة تحت عينيه وفوق أنفه، وأخذ يرتدي ملابسه التي كواها خصيصًا لهذا اليوم... كان كالذاهب إلى حفل زواجه، وكان يتمهل في كل حركاته كمن يتمنى أن يتوقف الزمن ولا يتقدم ثانية واحدة إلى الأمام... أما خميسة فكانت في كامل زينتها، تقف وسط الحجرة تنتظر سعيد الشضلي، وتطالبه بالإسراع في ارتداء ملابسه، وهى تشعر أن الوقت قد يسرقها وتتأخر... كانت قد استعدت منذ الأمس... ذهبت إلى نونا في الكوافير وقالت لها:

- أنا بكرة عروسة!
- حا أخليكي أجمل عروسة!

نتفت كل الشعر من وجهها... كوت شعرها... سرحته تسريحة جعلت وجهها جميلاً متألقًا... اشترت ثلاثة كيلو لحمًا... وطبختها مع البازلاء كما يحبها مرسي الجن... استيقظت قبيل الفجر... ذهبت إلى دورة المياه المشتركة... خلعت ملابسها لتغتسل... شعرت بأن بعض سكان البيت من الشباب أحسوا بها وأن بعضهم تسلل على أطراف أصابعه ونظر من شراعة الباب... شعرت بمتعة نظرات العيون التي لا ترى أصحابها وهى سارحة فوق رغاوي الصابون التي

تغطي جسدها العاري... كانت في قمة البهجة والنشوة... لم يكن صباحًا عاديًا صباح ذلك اليوم... لذلك غنت ورقصت عارية في دورة المياه... أنهت اغتسالها وخرجت... ذهبت إلى حجرتها... جففت جسدها بعناية ورشته بزجاجة عطر كاملة... ارتدت فستانًا اشترته خصيصًا لهذا اللقاء... لقاء مرسي الجن...

كان سعيد الشضلي حائر الذهن... مشتتًا... الخوف يملأ قلبه... والهواجس تمزق نفسه... هل يعلم مرسي الجن أنه السبب في دخوله السجن؟ هل يعلم أنه هو الذي أبلغ عنه بعد أن تمارض ولم يخرج معه لسرقة شقة كوثر صاحبة الكوافير؟ وما الذي سيفعله مرسي الجن بعد أن يخرج من السجن؟! إنه يستطيع أن يضربه حتى الموت... يستطيع أن يقتله بقبضته أو بسكينة... فهل تراه سيفعل؟ هل سينتقم منه بهذه الطريقة؟ أم ينتظر حتى يحفر له حفرة كبيرة بلا قرار؟ وهل سينتظر سعيد الشضلي حتى يحكم مرسي الجن الحبل حول رقبته ويشد الأرض من تحت قدميه أم يبادر بالضربة الأولى؟ وماذا يفعل؟

ألقى سعيد الشضلي نظرة في المرآة على خميسة الجالسة على حافة السرير وقد نفد صبرها من الانتظار... أستعود الليالي السوداء المغموسة في المهانة من جديد؟ يخرج مع مرسي الجن للجلوس في المقهى، أو للمقامرة، أو لتدخين الشيشة، ثم يختلق مرسي الجن أى عذر تافه ويتركه ويذهب إلى خميسة... أيعود سعيد

الشضلي إلى الثورة المكبوتة... والإحساس بالعجز والذل وهو يتخيل الجن وخميسة معًا في حجرته عاريين فوق سريره، يعبان كأس اللذة حتى الثمالة، ولا يستطيع أن يذهب إليهما وإلا نالته هو الفضيحة، وعرفت البلدة كلها أنه ليس رجلاً، وأنه ثور طويل القرنين منذ مدة طويلة جدًا؟

- أنا حاستناك أكثر من كده؟
- ثواني وأخلص.
- خلص وإلا حاسيبك وأمشي.
- حالاً... حالاً.
- بسرعة... أف.

كلما مرت الثواني اشتد شوقها إلى مرسي الجن... تريد أن تراه... تلمسه... تضمه إلى صدرها... تأخذه بداخلها وتطلق زفرة آهة لعلها تستريح... اشتاقت لكل شيء فيه... إلى عينيه العسليتين الضيقتين... والحسنة الكبيرة على خده الأيمن بجوار الأنف، والحسنة الأخرى الأكبر على الفخذ والتي كان يحلو لها أن تداعبها بأصابعها وأن تقبلها... وأن تشده منها... اشتاقت إلى قبلاته النهمة عندما ينسى نفسه ويعض شفتيها حتى تنزفان دمًا، فيلحس دمها بلسانه، ويطبق بذراعيه بقسوة على جسدها حتى يكاد يهرسه... اشتاقت إلى شتائمه وبصاقه في وجهها أثناء المعاشرة... اشتاقت إلى جنونه ومرحه وقوته وقسوته وسفالته الرائعة... لم يملأ أحد من

الرجال والشباب الكثيرين الذين عاشرتهم منذ دخوله السجن عينيها... ولم يستطع أحدهم السيطرة على جسدها... أو امتلاك قلبها... كانت تتذكر مرسي الجن وهي في أحضانهم فتحتقرهم... كلهم إناث وهو الفحل الوحيد الذي رواها حتى الشبع.

*****

٨

فُتح باب سجن الحدراء، خرج مرسي الجن... نظر حوله باحثًا عن وجه يعرفه... كل الوجوه غريبة... لا أحد ينتظره... أتراهم نسوه؟

– حتى أنت يا خميسة!

شعر مرسي الجن بمرارة عندما ابتلع ريقه... كان واثقًا أنه سيجد خميسة بانتظاره... إنها تعرف موعد خروجه... أخبرها به في آخر زيارة... هي لم تنقطع عن زيارته ولا مرة واحدة... كانت تأتيه بالطعام والنقود، وتهرب له السجائر المحشوة بالحشيش في أصابع الكفتة والمحشي... كانت تواسيه، وتؤكد له أنها تنتظره، وتحلم بيوم خروجه... وأنه مازال رجلها... مشى ببطء كطفل يحبو... الشوارع الضيقة تبدو في عينيه أوسع مما يجب... ويبدو الناس القليلون في الشارع كأنهم زحام رهيب... حاول أن يعتاد الشارع بعد طول الغياب... طاردته الأفكار السيئة: "ترى هل حدث لخميسة سوء؟ هل منعها زوجها من الحضور؟ قد تكون مريضة فعلاً... لا يمكن أن تكون بصحة جيدة ولا تأتي لاستقباله... والشضلي لا يستطيع منعها... إنه يخشاها... ويخشاه هو أيضًا.".

يعلم مرسي الجن أن سعيد الشضلي هو السبب في دخوله السجن... انضم إلى الزنزانة بعد شهور قليلة من سجنه ضيف

جديد... رشوان عبد الفتاح... أخبره رشوان أن سعيد الشضلي هو الذي أخبر كوثر صاحبة الكوافير بموعد الهجوم على شقتها، وجعلها تبلغ الشرطة التي استعدت لمرسي الجن بالكمين.

لا يعرف مرسي الجن حتى الآن ما الذي سيفعله مع سعيد الشضلي رغم أنه فكر في ذلك الأمر طويلاً... سينتقم منه... هذا أكيد... فهو لا يترك ثأرًا أبدًا... لكن كيف ينتقم؟ لم يفكر في هذا حتى الآن... إنه يترك كل شيء للظروف حتى إذا ما جاءت الفرصة المناسبة ضرب ضربته القاتلة.

مر تاكسي بجوار مرسي الجن، ثم توقف بعد بضعة أمتار... سمع مرسي صوت خميسة يناديه:

– مرسي يا جن!

نزلت خميسة من التاكسي... رآها... جرى إليها... جرت إليه... احتضنته وقد نسيت نفسها... وقف الناس في الشارع يشاهدون اللقاء المؤثر وكل منهم يفكر في شيء... نزل سعيد الشضلي من التاكسي... شعر بالحرج من العيون التي تنظر إليه وكأنها تسأله تفسيرًا... أسرع الشضلي إلى الجن وأخذه بالأحضان، وقال بصوت مرتفع ليسمعه الجميع:

– حمد على السلامة من السجن يا أخويا!

ثم أخذه إلى التاكسي...

ركب سعيد الشضلي بجوار السائق، وركب مرسي الجن وخميسة في الكرسي الخلفي... كانت الكلمات تتقاذف من فم خميسة بلهفة:

- حمد الله على السلامة يا مرسي... إزي صحتك يا أخويا؟ والله ورديت على السجن يا جن! إلهي ما ترجع له تاني وتفضل دايمًا معانا.

وصل التاكسي إلى القرية، ونزل الثلاثة في أول الشارع الرئيسي... زغردت خميسة... تجمع الناس حولهم... هنأوا مرسي الجن بالعودة... ومشى بعضهم معه حتى البيت الذي تسكنه خميسة!

كان مرسي الجن وسعيد الشضلي يتحدثان عن السجن والقرية وأهلها وأحوالها... بينما أشعلت خميسة الوابور بهمة ونشاط غير عاديين... وأعدت الطعام بسرعة... التهموا الطعام اللذيذ، فكومت خميسة الأطباق الفارغة بجوار الدولاب، وقالت:

- حا أعمل الشاي.

تساءل الجن:

- مفيش بيرة؟

قالت خميسة بخجل:

- لا والنبي يا سي مرسي.

ثم وقفت وهي تكمل كلامها...

- حاروح أشتري لك قزازة وأرجع على طول.

قال الجن بقرف:

- وهيه البيرة اللي بيبعها محروس لها طعم... دي ماء من المجاري... أنا عاوز بيرة نضيفة مش منقوع صرم وروث بهائم.

ثم نظر إلى الشضلي بطرف عينه وقال بلهجة آمرة:

- روح هات لنا قزازتين من إسكندرية يا سعيد.

هب سعيد الشضلي واقفًا كمن لسعته عقرب سامة... ثم قال بتخاذل وذلة:

- من عنيا يا مرسي يا أخويا... طلباتك أوامر.

ثم قال وهو يخرج من الحجرة:

- لو تأخرت فلا تقلق يا مرسي... أنت في بيتك.

*****

٩

شعر سمير الغنيمي بشلالات ضياء تتدفق داخل روحه... نفسه مفعمة بشعور فياض بالرضا عن كل شيء... عن نفسه، وعن الحياة، ويحس أن الله راضٍ عنه... لقد أخبره كريم أنه لابد أن يعقد قرانه على هند حتى يستطيع أن يدخل البيت... ويجلس مع هند وأسرتها دون حرج... أقام كريم بالأمس في بيته عقيقة للإخوة... ذبح خروفًا سمينًا... ومُلئتْ الأواني بفتة اللحمة... أكل الجميع وحمدوا الله وباركوا للعريس وتمنوا له زيجة موفقة.

كان الحاج عبد الصبور بسطاوي والد كريم يقف وسط الإخوة بوجه لا تختلف ملامحه عن ملامح وجه كريم إلا في فارق السن وعدم وجود لحية، يرحب بهم، ويحثهم على تناول المزيد من الطعام.

كان الحاج عبد الصبور بسطاوي... ثلاثة وستون عامًا... موظفًا بأرشيف إحدى المصالح الحكومية، يعتقد أن ابنه كريم هو الكمال ذاته... لا يرفض له طلبًا... ويعامله كريم المعاملة الإسلامية الصحيحة يحبه، ويحترمه، ويوقره، ولا ينفذ أمرًا إلا بمشورته.

عندما أراد كريم أن يلتحي، وينضم إلى إحدى الجماعات الإسلامية لم يأت هذا القرار من فراغ... لقد أعطاه بعض الإخوة الزملاء بكلية الهندسة كتبًا وكتيبات وشرائط كاسيت... قرأ...

وسمع... ووعى... وفهم... وفكر، وأخذ يتردد على المساجد التي تلقى فيها الدروس والخطب التي يختلط فيها الدين بالسياسة بأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية، ثم قرر أن يصبح واحدًا من الإخوة، لم يعارضه أبوه، قال له أنه ذو عقل راجح، وأنه يعرف طريقه ومستقبله، ويستطيع أن يرسم حياته بنفسه، وأن يختار الأفضل دائمًا... لكن الأب - ولأول مرة - عارض كريم عندما فاتحه في أمر خطبة سمير الغنيمي لهند... لقد حكى كريم لأسرته كل شيء عن سمير... ظروف حياته... مستوى تعليمه... شخصيته... حكايته مع نونا... توبته!

وأكد لهم أن سمير معدنه طيب، وأنه سيكون زوجًا صالحًا لهند... عارض الأب... وكذلك عارضت الأم الحاجة فاطمة التي تطيع ابنها طاعة عمياء منذ بدأ الشعر ينبت فوق شفته العليا... عندما طلب منها أن تواظب على آداء الصلوات واظبت... بذلت جهدًا كبيرًا عندما بدأ يساعدها في حفظ القرآن كي لا تخذله... سارعت في تلبية طلبه عندما طلب منها أن ترتدي ملابس الأخوات الفضفاضة والخمار والبيشة، ومع ذلك فقد أظهرت الحاجة فاطمة لكريم امتعاضها من سمير... ليس هذا هو الزوج الذي تتمناه لابنتها الوحيدة... إنها تريد لها زوجًا ذا مستقبل مرموق، يمكنها أن تفاخر به ككريم نفسه... أي يكون مهندسًا أو طبيبًا.

لكن الأب والأم تراجعا أمام إصرار كريم، وموافقة هند... وتراجعا أكثر عندما عرفا سمير عن قرب وتعاملا معه، فتأكد لهما صحة كلام كريم عن معدنه الطيب ورجولته وشهامته، وأصبح سمير بمثابة ابن ثالث لهما.

*****

مضى سمير الغنيمى إلى مسجد الإخوة مسرعاً وهو يحمل صندوق كوكاكولا .. يتبعه ثلاثة من إخوانه يحمل كل منهم صندوقاً.. وثلاثة آخرون يحملون علب الجاتوه ..

كان المسجد قطعة من النور.. الزهور معلقة فى كل مكان.. ثلاثة أقواس من جريد النخيل المُحلَى بالزهور والبالونات الملونة تحيط بطريق فُرش بنشارة خشب ملونة أمام المسجد بعدة أمتار..

كان الجميع موجودين.. الحاج عبد الصبور.. وكريم.. وكل الأخوة ..لكن أحداً من أهل سمير لم يكن هناك.. فالأب غارق فى عالمه الخاص المضبب بدخان الحشيش.. وممتلئ برائحة النساء.. والأم زارت هند ساعة ثم عادت إلى بيت العائلة، وكأنه ليس فرح ابنها .. وبقية آل الغنيمى كان كل منهم مشغول بنفسه وبحياته

وهمومه الخاصة .. ولم يفكر أحدهم فى الوقوف بجوار سمير فى مثل هذا اليوم..

لم يتألم سمير لذلك.. بل لعله شعر بسعادة داخلية لعدم وجود أحد من عائلته .. وإلا لكان يمكن أن يحدث منهم ما يعكر صفو الليلة.

وبدأ الاحتفال ..

قرأ أحد الإخوة بصوت رطيب بعض ما تيسر من آيات الذكر الحكيم.. ثم ألقى كريم بسطاوى كلمة عن الزواج فى الإسلام وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على طلبه من أجل عفة المجتمع المسلم.. ورحب بالأخ سمير زوجاً لأخته..

ثم ردد أحد الإخوة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للزوجين . وردد الجميع خلفه:

"بارك الله لك فيها.. وبارك لها فيك.. وجمع بينكم فى خير وعلى خير".. وتوالت الخطب والكلمات التى تتناول موضوعات شتى من وجهة نظر دينية.. ثم أخذ الإخوة ذوو الأصوات الحسنة ينشد كل منهم النشيد الذى يحفظه.

بدأ أحدهم:

صــوت جــو قلوبنــا
نــادى علينــا وقــال
نيجى نحيى عريســنا
ده عريس الإسلام !!

وتلاه آخر :

يــا رب يــا وهــاب يســرها
للعزاب وافتح لهم الأبواب
شـــباب ملتزمـــون فـــى
الشـــــارع إذ يميشـــــون
والفـــتن طريـــق الخـــراب

وثالث أنشد :

الكفوف فى الكفـوف فاشهدوا عهودنا
الثبـات فى الصـفوف المضـاء أو الفنـا
فعلـى شـفا السـيوف نسـترد مجـدنا
بالكتـــب شرعـــة والرســول قـــدوة
واليقيـــن عـــدة والإلــه ناصـــر

وتوالت الأناشيد.. يتخللها فوازير عن أعلام الإسلام ومواقعه الكبرى.. ثم عقد مأذون المنطقة القران..
وخرج الإخوة من المسجد بسمير وقد أمسكه أحدهم من يده اليمنى.. وأمسكه الآخر من اليسرى.. وكون الباقون حوله حلقه.. وأخذوا يرددون:

حياك الله عريس الإسلام

حياك الله عريس القرآن!!

كانت هند فى حجرتها وحولها صديقاتها من الأخوات ينصحنها بما يجب عليها تجاه زوج المستقبل.. وهى تستمع إليهن نصف واعية.. كانت سارحة فى أفكارها..

لقد حدثها كريم عن سمير.. ووافقت لسبب واحد هو ثقتها فى رأى كريم.. وفى أنه لن يغشها أو يفعل ما يؤذيها..

وعندما جلست مع سمير أحست بأنه فتى أحلامها.. لقد كنت تحلم بمثل هذا الشاب.. لا يهمها أنه فقير.. أو خاطئ.. أو بلا شهادة.. إنه وسيم.. وقوى.. أهم ما شدها إليه أنه قوى.. فرغم

سـقطته الكبرى مـع نونـا اسـتطاع أن يجـد الشـجاعة ليعترف.. وليبحث عن طريق للنجاة..

ثـم جلسـت معـه مـرتين بعـد ذلـك فى حضـور كـل أفـراد الأسـرة.. وتأكدت بداخلها فكرتها عنه.. وأحبته بالفعل.. وقررت أن تساعده بكل ما تستطيع.. ستساعده على إتمام حفظ القرآن كله مجوداً.. وتساعده ليجيد القراءة والكتابة بدلاً من تعثره إذا اضطر لكتابـة شـئ أو قراءتـه.. وسـتعمل علـى تنميـة نـواحى القـوة فى شخصيته وتثبيت الإيمان فى قلبه.. إنه فولاذ وسوف تنقيه من الشوائب.. فهو فعلاً كما قال كريم:

- معدن طيب!!

وهى الحداد الذى يستطيع أن يجعل من هذا المعدن سيفاً باترًا.. أو طائرة أو غواصة أو قطعة من الخردة الصدأة.. وقد قررت هند أن تصنع من معدنها سفينة فضاء!!

عندما انتهت هند كانت صاحباتها تتضاحكن.. قالت إحداهن:

- كل السرحان ده؟! أمال لو كانت دخله مش كتب كتاب؟!

ابتسمت هند فى خجل.. وأنهت ارتداء فستان الفرح الأبيض والطرحة المرصعة بالترتر.. وارتدت فوقهما جلبابها الكحلى الفضافض.. والخمار والبيشه والقفاز والنظارة!!

كان سمير يقف وسط الحلقة التى كونها إخوانه أمام الزاوية وهو سعيد بالزفة الإسلامية التى يقيمونها من أجله..

لكنه كان يتمنى أن ينتهوا من أناشيدهم بسرعة.. يريد أن يطير إلى هند.. لقد حجز كريم للأسرة كلها منضدة فى كازينو، سيتناولون العشاء هناك.. ثم يذهبون بسيارة استعارها كريم من أحد الإخوة إلى المنتزة.. وبعدها يسيرون على الكورنيش.. ستكون ليلة رائعة!!

أخذ القلق يتسرب إلى نفس سمير عندما اشتدت الحماسة ببعض الإخوة فأخذوا يرددون أناشيد وهتافات ذات صبغة سياسية زاعقة.. أحس أنه فى مظاهرة ..

- مش حا نسلم .. مش حا نطاطى

ده أحنا كرهنا الصوت الواطى!!

- مؤامرة تدور على الشباب

ليعرض عن معانقة الحراب

مؤامرة تدور بكل بيت

لتجعله ركاماً من تراب!!

- يا ظلام السجن خيم

إننا نرضى الظلاما

ليس بعد الليل إلا

فجر مجد يتسامى !!

- إسلامية إسلامية.. لا يهودية ولا صليبية!!

- (أسم كبير جداً) يا جبان.. يا عميل الأمريكان!!

فجأة دوى صوت سارينة.. ووقفت أمام الزفة سيارة شرطة وخلفها بوكس..

نزل ضابط برتبة رائد من السيارة.. وقفز عدد من الجنود بملابس مدنية من البوكس وبيدهم هراوات ..

بعض الإخوة جرى.. وبعضهم أشتبك مع الجنود فى معركة سالت فيها دماء كثيرة من الجانبين..

بعد انتهاء المعركة كان البوليس قد قبض على عدد من الإخوة من بينهم العريس.. سمير الغنيمى!!

وصل الخبر إلى هند.. أغمى عليها.. لم تفق إلا فى اليوم التالى!!

*****

١٠

عائدان...

بعد سنوات الغياب الطويلة قررا العودة... لم تعد الغربة تساوي ثمنها... كثر عدد المصريين في ليبيا، وتهافتوا على آداء أي عمل بأي أجر حتى يتمكنوا من الحصول على لقمة العيش، فانخفضت الأجور، وساءت المعاملة، فقرر عبد العزيز وعثمان أن يعودا إلى مصر... صرف عثمان الغنيمي كل نقوده التي ادخرها خلال السنوات الماضية بشيك واحد من البنك، واشترى هدايا لكل أفراد العائلة... قطع قماش فاخرة... بنطلونات... ساعات يد... لعب أطفال... كذلك اشترى عبد العزيز هدايا للجميع وإن كانت هداياه أرخص وأقل فخامة من هدايا عثمان؛ لأن عبد العزيز أرسل ما كسبه أولاً بأول لنجية.

ركب عثمان وعبد العزيز سيارة بيجو بيضاء انطلقت بهما بأقصى سرعة... لم يتحدثا كثيرًا في الطريق... انكمش كل منهما داخل نفسه وأفكاره وأحلامه... استعرض عثمان شريط حياته الماضية بسرعة... الحياة البوهيمية التي عاشها في البلدة دون الاستقرار في عمل معين... حياة المشاجرات واللعب والمغامرات العاطفية والجنسية التي انتهت بزواجه الذي أثمر عن طفلين... وطلاقه السريع من زوجته، وسفره إلى ليبيا فرارًا من الشعور بعدم

الأهمية، ورغبة في الحصول على المال لأنه الشيء الوحيد الذي يجعل للإنسان قيمة في هذا العالم، وحياته المضنية في ليبيا... حياة العمل الشاق المتواصل لساعات طويلة من اليوم، وتقتيره على نفسه، ليدخر أكبر مبلغ ممكن، والبنت البدوية التي كان يختلي بها في خيمة في الصحراء مرة كل شهر مقابل مبلغ معلوم.

ابتسم عثمان لنفسه عندما وردت على خاطره صورة هنادي البدوية السمراء... البدينة... فارعة الطول... ذات العينين السوداوين الواسعتين... والشفاه المكتنزة الشبقة... واللهجة اللذيذة... كانت الساعة التي يقضيها معها كل شهر هي كل الترفيه الذي سمح به لنفسه... غاضت الابتسامة عندما تذكر عثمان نهاية هنادي.

ذهب إليها تلك الليلة كعادته... نادى عليها... لم ترد... ظن أنها تختبئ في الخيمة لتفاجئه عندما يدخل... أرهف أذنيه لعله يسمع رنين الأساور الذهبية في ذراعيها، أو شخللة الخلخال الفضي في قدميها... لكنه لم يسمع شيئًا... دخل الخيمة بحذر... مشى خطوتين... ثم توقف فزعًا قبل أن يرفع قدمه ليخطو الخطوة الثالثة... كانت هنادي ملقاة على ظهرها وسط الخيمة عارية تمامًا... ووجهها مشوه بآلة حادة... وحلمتا ثدييها مقطوعتين، والثديان ينزفان دمًا وقد واختفى الذهب والفضة من يديها وقدميها!

قبض البوليس الليبي على كل من تردد على خيمة هنادي ومن ضمنهم عثمان، وكانت التحقيقات طويلة وصعبة ومرهقة، وانتشرت الشائعات التي تحاول تفسير مقتل هنادي بتلك الصورة البشعة... قالوا إن أخًا لهنادي نذر نفسه للبحث عنها بعد أن هربت من قبيلتها مع شاب لبناني، وعندما عثر عليها أخوها قتلها وشوهها انتقامًا لشرف القبيلة الذي أهدرته بهروبها، ومرغته في الأوحال ببيعها جسدها لكل إنسان بعد أن هجرها عشيقها اللبناني.

قالوا أيضاً أن لصًا - عرف أنها تمتلك ذهبًا وفضة وأموالاً كثيرة دخل الخيمة ليسرقها؛ وعندما حاولت مقاومته قتلها، ثم شوه وجهها.

أُفرج عن عثمان وكل المقبوض عليهم في قضية مقتل هنادي، فقد قبض البوليس على القاتل الحقيقي بعد أسابيع طويلة من العذاب الذي لا نهاية له... شاب مصري اسمه فرج موسى... كان أحد زبائن هنادي المترددين عليها باستمرار؛ لكنه أحبها، وحاول أن يجعلها تحبه، فصدته في البداية بهدوء وحكمة المرأة المجربة التي لا تريد أن يفلت من يدها زبون سخي، ثم بدأت تسخر منه عندما حاول أن يفرض عليها حبه ويظهر غيرته عليها، ويتشاجر كثيرًا مع المترددين على خيمتها، فخشيت أن يبتعد الزبائن عنها بسبب طيش فرج موسى، فأمرته بحزم ألا يتردد عليها، ولما رفض الابتعاد عنها

استأجرت شابين انتظراه بجوار الخيمة، وأوسعاه ضربًا حتى فقد الوعي، ثم ألقياه في الصحراء.

ابتعد فرج موسى عن هنادي فترة بعد هذا الدرس القاسي، ثم عاد إليها مطأطئ الرأس... منكسر النفس... معتذرًا عن طيشه وحمقه وسوء تصرفه... وأكد لها أنه أصبح عاقلاً، ولا يطلب منها أن تحبه كما يحبها... وأنه سيكتفي بما تعطيه له... سيقف في الطابور كغيره... ويحمد لها ما تمنحه إياه... ويدفع مقابل ما يأخذه بسخاء!

صدقته هنادي وهي سعيدة أن مشكلتها قد انتهت هذه النهاية السعيدة، وقررت أن تكافئه مكافئة كبيرة بأن تمنحه نفسها تلك الليلة مجانًا... وفي ذروة النشوة... وفرج موسى يفترشها، أطبقت يداه على رقبتها، وظل يضغط عليها بأصابعه بجنون حتى فارقت الحياة، ثم شوه وجهها الجميل، وقطع حلمتي ثدييها، وأخذهما تذكاراً حتى لا ينساها أبدًا، وأخذ ذهبها وفضتها وأموالها.

تم القبض على فرج موسى صدفة؛ عندما شاهد أحد المترددين على هنادي معه الخلخال الذي كانت تلبسه في قدمها اليسرى؛ وعندما سأله عنه قال إنه خلخال أمه... وهو يحتفظ به لكي لا ينسى ذكراها، فأبلغ عنه الرجل، وقبض عليه البوليس، واعترف بكل تفاصيل الجريمة!

يذكر عبد العزيز أنه كان ضمن المقبوض عليهم في حادث مقتل هنادي البدوية مع أنه لم يتردد على خيمتها سوى مرات قليلة خلال السنوات الماضية؛ فقد كان يخشى زوجته نجية حتى وهو على هذا البعد الشاسع منها؛ كما أنه لم يعجب كثيرًا بهنادي كما لم تعجبه سيدة الدفشاوي الدمياطية التي سافرت مع زوجها إلى ليبيا التي حلت محله عندما قبض عليه وهو يحاول تهريب المخدرات إلى مصر، وملأت مكانه، فباعت المخدرات، وجسدها، وأجساد من استطاعت تجنيدهن من مصريات، وليبيات، ويونانيات، وجميلات من جنسيات أخرى حتى أصبحت تدير مؤسسة كبرى، وشبكة أخطبوطية تمتد أذرعها إلى كثير من الدول العربية... مهمتها توصيل الطلبات الجميلة إلى المنازل والقصور... وبالطائرات... إذا كانت إمكانيات العميل تسمح بذلك!

تعرف عبد العزيز على سيدة الدفشاوي في بداية محنتهاعندما فقدت زوجها بدخوله السجن، ولم تكن تملك إلا جسدًا، ومستعدة لقبول أي شيء لتجد ثمن ما تأكله... أعطاها المال الذي أرادته؛ لكنها لم تعطه ما يريده... لم تعطه ما كانت تعطيه إياه نجية... عندما يتذكر عبد العزيز حياته السابقة يتعجب كيف تحمل كل هذه السنوات بعيدًا عن نجية... لولا أنها أمرته أن يسافر، وأصرت على ذلك؛ لما فكر في الابتعاد عنها أبدًا.

لقد أحب عبد العزيز نجية وهو شاب صغير، وفعل المستحيل كي يتزوجها... كانت أسرتها تعيش في القرية قبل أن تنتقل إلى محافظة الغربية، فاستطاع عبد العزيز أن يكتسب ود وصداقة رمضان أخو نجية بكثرة جلوسه معه في المقهى، وتركه يغلبه في لعبة الطاولة، ودفع حساب المشروبات دائمًا، وإلقاء النكات الجنسية البذيئة!

لاحظ عبد العزيز أن نجية تميل إلى حسين عبد الواحد طالب الثانوي وصديق رمضان، فبذل كل جهده وحيلته للإيقاع بين الصديقين، ثم أطلق شائعات ملأت البلد كلها في نصف يوم، تؤكد أن سبب القطعية بين رمضان وحسين عبد الواحد هو اغتصاب حسين لشرف نجية أخت رمضان، ورفضه في نفس الوقت الزواج منها بحجة أنه ما زال طالبًا، ثم ذهب بشهامة منقطعة النظير إلى صديقه رمضان، يطلب منه يد أخته نجية، فقال رمضان بدهشة:

- بعد كل ما تقوله القرية؟

أجاب عبد العزيز بيقين:

- إنها مجرد شائعات... أنا واثق من براءة أختك... منهم لله أولاد الحرام.

قال رمضان بمرارة وفرحة:

- منهم لله... أنا مش عارف أقولك إيه يا عبد العزيز!
- قوللي مبروك!

كان عبد العزيز الغنيمي رغم دمامته وفقره طوق النجاة للأسرة التي تلطخ شرفها بطين الشائعة الخبيثة، وتم زواج عبد العزيز العامل بورشة الطوب بسرعة بنجية الجميلة.

١١

كان عبد العزيز يحسد نفسه على ذكائه فقد أصبحت نجية مطمع كل شباب القرية ملكًا له وحده، و لا يرجع الفضل إلا لهذا الذكاء الجهنمي الذي أطلق تلك الشائعة الشيطانية.

دخل عبد العزيز وعروسه حجرة النوم... خلع ملابسه بسرعة... وساعد نجية في خلع ملابسها... احتضنها بشبق، وقبلها بنهم مسعور، وشدها إلى السرير، واعتلاها، فاكتشف أن الشائعة حقيقة!

انهار عبد العزيز... قفز من على السرير... أخذ يدور في الحجرة ضاربًا كفًا بكف... وهو يردد:

– إزاي؟ مش ممكن... معقول؟ إزاي؟

ثم جلس في ركن الحجرة بجوار الدولاب متكومًا على نفسه، وأخذ ينتحب بمرارة متناهية بينما جلست نجية على السرير عارية تنظر إليه بشماتة...

– أنت اللي وسخت سمعتي في البلد كلها مش كده؟

هكذا سألته نجية وهى ترميه بنظرات ملؤها الحقد والغيظ...

– أنا؟ مش أنا... مين اللي قالك الكلام الفارغ ده؟

قالت نجية:

- مش محتاجة حد يقوللي... أنت لما شفتني مع حسين على السطوح بيتنا قادت النار في قلبك... بس أنت ما خدتش بالك إني أنا كمان شفتك.

حاول عبد العزيز أن يتكلم، فخرجت الكلمات من فمه متقطعة:

- بس... بس... مش... أنا اللي... قلت... إنك...

صرخت فيه نجية:

- لا... أنت اللي قلت... والدليل أنك طلبت تتجوزني.

قال عبد العزيز مؤكدًا:

- أنا طلبت أتجوزك علشان باحبك... وعاوز أنقذ شرف عيلتك!

ساخرة قالت له نجية:

- أنت فعلاً بتحبني... لكن سيبك من حكاية الشرف دي!

سألها:

- يعنى إيه؟

أجابت:

- يعني أنت شفت حسين وهو بيبوسني على السطوح... في عشة الفراخ... والإشاعة ملأت البلد عني أنا

وحسين... ومع كده اتجوزتني... ليه؟ لأنك الوحيد اللي كنت عارف الحقيقة.

وقف عبد العزيز في منتصف الحجرة، ثم اقترب من السرير، ونظر في عيني نجية وهو يتساءل بدهشة ومرارة:

– لكن إزاي؟ إزاي ده حصل؟ إنت؟ أنا مش مصدق نفسي!

قالت وهى تشعر بلذة في تعذيبه:

– لأ صدق... أنت اللي عملته في نفسك... بعدما خطبتني أنا قابلت حسين مرتين في بيته... قلت له على كل حاجة... وعملنا اللي انت قلت عليه.

تحشرجت الصرخة في حلقه وهو يسألها:

– اللي أنا قلت عليه؟

قالت له بسخرية حادة:

– أنت مش اتجوزتني علشان تأكد للناس إني بريئة، وتنقذ شرف عيلتي؟ أديك أنقذت شرف عيلتي يا أبو شرف!

صرخ فيها:

– أنتي بتقولي إيه؟

صرخت فيه متحدية:

- باقولك اللي سمعته، ولو كنت راجل اخرج قول للناس الحقيقة.

وكأنه يسمع الكلمة لأول مرة في حياته، أخذ يرددها:

- الناس؟ الناس؟ الناس؟

قالت مؤكدة:

- أيوه الناس... الناس اللي أنت كنت ناوي تقابلهم يوم الصباحية يا عريس وأنت منفوخ زي الديك الشركسي وبتضحك وتبرم شنبك وتقول لهم إني طاهرة وبريئة... وأنك كسبت السنيورة بشهامتك... وريني إزاي حاتقول لهم الحقيقة بقى؟

ولم يقل عبد العزيز الغنيمي الحقيقة، أكد للناس كذب الشائعة، فزوجته عذراء طاهرة الذيل، وهو أول رجل يعرف جسدها، ولم يكن مغفلاً عندما تزوجها... لقد كان شهمًا... وأكرمه الله ببنت الحلال الشريفة العفيفة.

سمحت نجية لعبد العزيز بتقبيلها، واحتضانها نهار ليلة الزفاف؛ لكنها لم تسمح له بمعاشرتها إلا بعد ثلاثة أيام بعد أن بكى شوقًا إلى الجسد الذي يضمه بين ذراعيه، ويقبله بشفتيه ولا يستطيع أن يحتويه وأن يكتشف أسراره ويفك طلاسم رموزه... قبل يديها وقدميها، فأعطته نفسها بمقدار... باستعلاء... كان يلهث وهو فوقها، ويقبل رقبتها، ويعضها، ويردد محمومًا:

- أنا عبدك... أنتي حياتي!

وهي تتعامل معه بمزيج من الاحتقار والحقد والشفقة واللامبالاة... اعتاد أسلوبها مع الأيام... لا يقترب منها إلا إذا سمحت له، وإذا اشتدت به الرغبة حتى الجنون قبل الأرض تحت قدميها حتى ترضى أن تنام معه، وإذا لاحظ أنها تخرج كثيرًا لزيارة سعدية أخت حسين عبد الواحد لم يعلق، وإذا كلمه إخوته وأصدقاؤه في ذلك صرخ فيهم:

- مراتي أشرف ست في الدنيا... أنا جوزها وأعرفها أكثر منكم... ما هي الإشاعات كانت مالية البلد عنها هي وحسين وطلعت كذب... وأنا باسمح لها تزور سعدية أخت حسين لأنها صاحبتها... ولأني واثق من مراتي وكمان حسين جدع طيب وابن حلال... وبكره يبقى دكتور قد الدنيا!

وأصبح عبد العزيز مقيدًا إلى نجية برغبته وامتناعها عليه حتى أصبح يخشاها خشية مقدسة... تلك الخشية التي تكمن داخل الإنسان... وتحكم تصرفاته... حتى ولو كان الذي يخشاه لا يراه... إنه يخشى أن تمتنع عنه لفترة طويلة... أو تترك له البيت وتذهب إلى بيت أهلها كما فعلتها مرة لمدة أسبوع كاد يجن خلاله لدرجة أنه كان يضرب رأسه في الحائط وعمود السرير، ويفرغ

حاجته في دورة المياه قبل أن تفتك به الرغبة، ثم ذهب إليها... واعتذر لها مع أنه لم يكن مخطئاً!

ويخشى عبد العزيز أيضًا أن تعرف القرية حقيقة حكايته مع نجية منذ أحبها، ورؤيته لحسين وهو يقبلها، وإطلاقه الشائعة التي دمرت سمعتها، وزواجه منها بعد أن أفقدها حسين بكارتها، وتركها تذهب إلى حسين كلما أرادت... يخاف أن يصبح معرة البلدة كلها... في الحقيقة هو يحس بالهمسات التي تترد حوله هو وزوجته... لكن الناس غير متأكدين؛ لذلك لا يواجهونه... قد يرثون له... لكنهم لا يسخرون منه علانية... ولا يعايرونه... لو عرفوا الحقيقة سيبصقون في وجهه، ويضربونه على قفاه... ربما يطردونه من البلدة... وربما يتركونه ليكون أضحوكتهم...

*****

– حمد الله على السلامة!

قالها سائق البيجو البيضاء... فأفاق عثمان وعبد العزيز الغنيمي من أفكارهما... لقد وصلا إلى القرية... توقفت السيارة أمام البيت... نزلا منها... استقبلتهما العائلة كلها بالأحضان... دخلا البيت بعد أن ألقيا نظرة على الشارع الرئيسي بالقرية... كانت كافية ليشعرا أن تغييرات هائلة قد حدثت بها.

*****

١٢

لم تكن نجية بالبيت ساعة وصول عبد العزيز من ليبيا... قالوا لعبد العزيز إنها ذهبت إلى الإسكندرية كعادتها بين يوم وآخر... صعد عبد العزيز إلى شقته، ودخل إلى حجرة النوم مباشرة، وبدل ملابسه، وألقى بنفسه على السرير وهو يشعر بالإرهاق والإجهاد الشديدين... ظل يحملق في السقف... عشرات الصور كانت تتشكل أمام عينيه من جير السقف المتساقط بعضه... وجه شيطاني ضاحك... قوائم حصان... جسد أنثوي بلا رأس يتلوى... سيارة مزدحمة بالركاب... شجرة كثيفة الأغصان، اشتبكت فيها قدم عصفور صغير، يحاول تخليص نفسه لكنه لا يستطيع الإفلات... لم تعد عينا عبد العزيز ترياق شيئًا في السقف ولا في غير السقف بعد قليل... أخذته أحلامه بعيدًا فلم يعد يرى إلا هي... أخيرًا... انتهت سنوات العذاب... سيستريح حتى نهاية العمر... سينتقم من كل سنين التعب والشقاء والحرمان بالراحة التامة... سيشتري قطعة أرض كبيرة... ويبني عليها بيتًا فخمًا... الدور الأرضي سيكون سوبر ماركت ممتلئًا بالبضائع... والدور العلوي سيكون شقته هو ونجية... شقة كبيرة... حجراتها واسعة... أربع حجرات... وصالة... ومطبخ... ودورة مياه جدرانها مغطاة بالسيراميك الفاخر حتى السقف... سيعمل لديه في السوبر ماركت

شابان... وفتاة تجلس إلى الخزينة، ويجلس هو وراء مكتب ضخم فوقه تليفون أسود، ويمسك بيده مبسم الجوزة كأجدع معلم في البلد، وينظر إلى عماله باستعلاء، ويزعق فيهم إذا أخطأوا، ويسبهم... قد يركلهم بقدمه، وينظر إلى فتاة الخزينة باشتهاء، ثم يسحب نظرة الشهوة بسرعة خشية أن تنزل نجية فجأة!

سينسى... سيحاول بكل جهده أن ينسى حياته الماضية... ورشة الطوب التي أكلت سنوات طفولته وشبابه... بدأ العمل فيها صبياً لم يتجاوز التاسعة من عمره بعد أن فشل الشيخ (السعيد) صاحب كتاب القرية في تلقينه ولو سورة واحدة من قصار السور... كل ما حفظه خلال ثلاثة أسابيع سورة الفاتحة... حيث يستطيع تسميعها وهو متربع على الأرض يتمايل يمينًا وشمالاً دون أن يخطئ إلا في آيتين أو ثلاث فقط!

عمل فى البداية كعربجي بورشة الطوب، وكانت مهمته الوقوف بعربته الصاج التي يجرها حمار هزيل تحت فم الخلاط الضخم الذي يقذف بالطين حتى تمتلئ به العربة تمامًا... ثم يذهب بالطين إلى إسماعيل قدري أمهر (ضّرِيب) طوب في الورشة... أصبح مساعدًا لإسماعيل قدري بعد عدة أشهر، يأتي إلى الورشة مع مطلع الفجر، فينظف القوالب الخشبية التي يصب فيها إسماعيل قدري الطين، ويغسلها، ويظل يساعد معلمه في العمل حتى العصر، فيذهب إلى البيت لتناول طعام الغذاء، ثم يعود قبيل

الغروب عندما يكون الطوب قد أخذ يجف في القوالب، فيرفع القوالب، ويحرك الطوب ليجف من جميع النواحي.

كان إسماعيل قدري أسطورة حياة عبد العزيز فهو يملك كل ما لا يمكله عبد العزيز... طويل... عريض... قوي... وسيم، لا يخشى شيئًا ولا أحدًا... يضحك بملء فمه كأنه يملك العالم، فتلمع سنته الذهبية في ضوء الشمس، فلم يتردد عبد العزيز في أن يكون تابعًا لإسماعيل قدري، وكان هو المرسال الخصوصي الذي يحدد مواعيد إسماعيل مع (بنات الكلا) وبنات الكلا هن البنات اللاتي مهمتهن حمل الطوب الأحمر بعد خروجه من الفرن... وتحميله على العربات التي تأخذه إلى المخزن... كان إسماعيل قدري على علاقة بمعظم بنات الكلا، يقابلهن في الليل بين صفوف الطوب الأحمر العالية، وكان عبد العزيز يقف بعيدًا كناضورجي، ينبه إسماعيل قدري والفتاة التي معه إذا ما اقترب خفير الورشة من منطقة اللقاء، و يذهب عبد العزيز بعد انتهاء اللقاء مع البنت، يوصلها إلى دارها حتى يطمئن عليها خشية أن يصيبها سوء في الطريق!

كان عبد العزيز يذهب بعد ذلك إلى البيت، ليأكل أي طعام يجده، أو لا يأكل إذا لم يجد طعامًا، ثم يلقي بجسده في أي ركن بالبيت، وينام وخياله مشتعل بالصور التي رآها... الأحضان، والقبلات، والهمسات، واللمسات، واللعب الجنسي العنيف،

ويستيقظ ليجد المني يغرق بنطلونه، فيضطر للاستحمام في ترعة القرية قبل الذهاب إلى الورشة مع مطلع الفجر.

واعد إسماعيل إحدى بنات الكلا ذات ليلة... نعمات صفتاوي... لم تكن نعمات على قدر كبير من الجمال، كانت عيناها ضيقتين، وأنفها واسع مفلطح، لا تستطيع أن تحدد إذا ما كان وجهها يشبه الكرة أم يشبه البيضة، وشعرها الأكرت يبدو بعضه نافرًا من ربطة المنديل البنفسجي القديم المحكم؛ لكنها ذات جسد تعجز الأوصاف عن تبيان جماله... متوسطة الطول... ممتلئة إلى حد ما... سمراء... بارزة الصدر... ذرية النهدين، يثير جسدها كوامن الرغبة في أكثر رجال العالم برودًا - خاصة - عندما تمشي بطريقتها الخاصة وكأنها ترقص كإوزة فوق الماء!

جاءت نعمات في الموعد... لكن إسماعيل قدري لم يحضر... انتظرته عدة دقائق، ثم بدأ القلق يتسرب إليها... سألت عبد العزيز:

- هوه مش قالك جاي؟

أجابها:

- أيوه.
- أمال إيه اللي أخره؟
- والله ما أنا عارف.
- أوعى يكون الميعاد غلط.

- لأ... إحنا جينا في الميعاد بالضبط.
- يا ترى إيه اللي حصل؟
- خير إن شاء الله اطمئني!
- أطمئن إزاي... اسمع... أنا حاستنى خمس دقائق كمان... وإن إسماعيل ما جاش حاروح.
- يمكن يجي بعد ما تروحي.
- أعمل إيه؟ ابقى قول له إني استنيته.
- وحاتروحي كده؟
- كده إزاي؟
- يعني... من غير ما تعملي حاجة... قصدي من غير ما تمتعي نفسك شوية؟
- ما هو إسماعيل اتأخر... أعمل إيه... حظي كده!
- وهو لو ما كانش إسماعيل يبقى بلاش... ما ينفعش؟
- قصدك إيه؟
- قصدي... قصدي... إحنا هنا برضه!
- أنتو مين؟
- أنا...
- أنت؟

وضحكت ساخرة...

- أيوه أنا... جربيني... ده أنا راجل قوي... وحاعجبك!

– طيب يا سيد الرجالة... أفوتك بعافية...قال راجل قال!

وضحكت مرة أخرى ساخرة وهى توليه ظهرها ذاهبة إلى بيتها بعد أن يئست من حضور إسماعيل... فارت الدماء في عروق عبد العزيز، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يهجم عليها ويحتضنها من ظهرها، ويضمها بين ذراعيه بشدة، ويهوي بها على الأرض وهي تحاول أن تتخلص منه، ثم تمسك نعمات نصف قالب طوب أحمر وتضربه به في رأسه... فيفك حصار ذراعيه عن جسدها، ويقع على ظهره وهو يمسك رأسه بيديه وقد غرق وجهه في الدماء المختلطة بالتراب الأحمر... وقفت نعمات... وضبطت ملابسها... ثم ركلته بقدمها في صدره... وبصقت عليه...

– ما فاضلش غير أنت كمان يا معفن!

وتركته ومضت... قابلت إسماعيل قدري في الطريق... كان عائدًا من سهرة في غرزة يتطوح... حكت له ما حدث... وفي الصباح بينما كان عبد العزيز يغسل قوالب الطوب في برميل خشبي ضخم، فوجئ بإسماعيل قدري يحمله، ويلقيه في البرميل، ويغطسه في الماء!

– أنا قلت لك على ميعاد بيني وبين نعمات؟

– لأ يا معلمي.

يغطسه أكثر:

- أمال عملت كده ليه يا ابن الكلب؟

يحاول أن يرفع رأسه ليتنفس وهو يقول:

- آخر مره يا معلمي.

ونال علقة ساخنة، فقرر أن ينتقم بالزواج من أجمل فتيات القرية!

*****

أطبق عبد العزيز جفنيه، وتقلب على جنبه، وحرك رأسه كالكلب عندما ينفض الماء عن جسمه... كان يريد أن ينسى كل شيء؛ لكن الماضي ما زال راقدًا في ذاكرته... ينغز أعصابه كالإبر الحادة الساخنة... ذهب إلى ليبيا باحثًا عن حياة أفضل... عن الثروة والراحة والقوة التي يمنحها المال للإنسان؛ لكنه لم يكن أحسن حالاً في ليبيا منه في مصر... إنه لا يملك شهادة... ولا مهنة... ولا صنعة؛ لذلك كان يقبل أي عمل... ينظف المراحيض العامة... ينزح آبار الصرف الصحي... يغسل السيارات... يكنس الشوارع... يحمل الطوب والزلط على كتفه... انتهى الآن كل ذلك... لم يعد للشقاء وجود... أصبح مجرد ذكرى سوف تُنسى مع حياة الدعة والراحة والهدوء... وداعًا أيها الماضي الكئيب المضني... وأهلاً بالمستقبل الرائع الذي سيحقق كل الأحلام.

أين أنت يا نجية؟ أوحشتني... أوحشتني نظراتك الصارمة المشفقة... أوحشني كبريائك وتعاليك... أوحشني كل شيء فيك حتى

الجنون... وجسدك الرائع الذي حُرمتُ من ينابيعه العذبة طوال سنوات الجفاف... أنا في شدة الشوق إليه.

عادت نجية بعد ساعتين... عرفت بالخبر... نزل عليها كالدش البارد... "ما الذي جاء به؟ لقد نسيته تقريبًا... لم يعد يربطني به إلا النقود التي يرسلها كل شهر مع خطاب يمليه على أحد معارفه في ليبيا ولا أضيع وقتي في قراءته."

صعدت درجات السلم ببطء وهي تفكر فيما سيقوله عبد العزيز، وما سيطلبه، وكيف ستجيبه؟

لابد أنه سيسألها عن النقود التي ادخرتها طوال تلك السنوات... إنها لم تدخر شيئًا... كانت تصرف ما يرسله إليها أولاً بأول... وكأنها تنتقم منه... وكأنها لا تريد أن تحتفظ بما يذكرها به... لم تشتر إلا أسورتين ذهبيتين لا يتجاوز ثمنهما الألفي جنيه...

ما الذي ستقوله له؟

بماذا ستجيبه عندما يسألها؟

فتحت باب الشقة... شعر بدخولها... قفز من فوق السرير... أسرع إليها... أخذها في حضنه...

– واحشاني موت يا نجية!

عاودها الاشمئزاز القديم...

– إيه اللي جابك؟

ارتخت ذراعاه عن جسدها، وابتعد سنتيمترات... نظر في وجهها دون أن يتكلم... حاولت تفسير الكلمات التي أفلتت بلا وعي:

- قصدي... أنت ما قلتش في آخر جواب أنك راجع.
- إزاي... ده أنا كاتب معاد رجوعي في الجواب.
- يبقى أنا نسيت.
- أنتي وحشتيني خالص... تعالي.

سحبها من يدها... أسرع بها إلى حجرة النوم... تركت نفسها له... كان ذهنها يدور بسرعة رهيبة... اللحظة الحاسمة تقترب... قد يسألها بعد دقيقة واحدة... إنها تفكر وهو يقبلها بنهم الجائع، ويتحسس جسدها بيد شبقة... فك أزرار فستانها بسرعة... خلع عنها قميصها... مزق (السونتيانة)... ذاب في جسدها... لم يفكر في سؤالها عن شيء، لم يسألها عن النقود، ولا عن خروجها شبه اليومي الذي قالوا له عنه، ولا عن ملابسها التي تعري من جسدها أكثر مما تستر، ولا عن الألوان الفاقعة التي تغطي وجهها... لم يلاحظ أي شيء من ذلك... كان تركيزه كله في شيء واحد... محاولة إطفاء لهيب حرمان سنوات!

استلقت على ظهرها عارية... ألقى عن نفسه كل ملابسه... ورمى بنفسه فوقها... ازداد شعورها بالقرف من جسده وأنفاسه وحركات أصابعه فوق جسدها وبين فخذيها... دفعته بعيدًا عنها...

- مالك؟

- مش عارفة... أنا.
- أنتي إيه يا نجية؟
- أنا... أنا عاوزة كوباية شاي بليمون.
- دلوقتي؟
- أيوه...
- ما تخليها بعد شوية.
- نفسي فيها دلوقتي.
- بس...
- اعمل لي كوباية الشاي وتعالى بسرعة...

لف نفسه ببعض ملابسه... قام مغلوبًا على أمره إلى المطبخ... نادته من فوق السرير:

- شاي خفيف سكر مضبوط يا عبد العزيز.
- فاكره يا حبيبتي... فاكره!

أحضر لها كوب الشاي بسرعة... أخذت ترشف منه ببطء... وهو يقبل فخذيها، ويتحسس ما بينهما برغبة كاسحة... وجدت أخيرًا ألا مفر، فألقت بالكوب على الأرض فتكسر، وتركت له جسدها ينهش فيه كما يشاء!

*****

تمدد عبد العزيز على ظهره وهو يشعر براحة عميقة... وإنهاك شديد لدرجة أنه لا يستطيع إلقاء البصاق المتجمع في فمه... عاد

ينظر إلى السقف، ويرى في جيره المتساقط عشرات الأشكال، ويرى أحلامه تتجسد أمامه... دخلت نجية الحجرة وقد لفت جسدها ببشكير أبيض، وجلست أمام المرآة تمشط شعرها كمن تذكر شيئًا... تربع عبد العزيز على السرير وسألها فجأة:

- بقى معنا كام يا نجية؟

تغابت...

- معنا كام إيه؟
- فلوس يعني... بقى عندنا كام؟
- ولا حاجة!

قالتها ببساطة متناهية...

- أنتي بتهزري؟
- أبدًا دي الحقيقة!

صرخ:

- إزاي؟

ردت بهدوء:

- بلاش تعلي صوتك.

صرخ أكثر:

- ده أنا حاعلي صوتي لحد ما يجيب السما... فلوسي راحت فين يا نجية؟

استدارت له، وقالت بحزم:

- وطي صوتك... أو أخرج من هنا.

بتراجع:

- أديني وطيت صوتي... بس فهميني.

قالت بتأنيب وتوبيخ...

- طبعًا ما أنت مش فاهم حاجة... عايش في ليبيا في الراحة وسايب لي أنا العذاب هنا... أنت عارف الأسعار والعيشة بقيت إزاي؟ طبعًا مش عارف حاجة... أمال... هوه أنت على بالك.
- ما أنا قلت لك تيجي تعيشي معايا هناك.
- وأنا قلت لك ميت مرة إني ما أحبش الغربة.
- يعنى ضاع كل شقا السنين وضناها؟
- أنت حاتنوح زى الولايا... ده أنا دبرت بالعافية علشان أقدر أعيش بالمليم اللي كنت بتبعتها لي.
- ملاليم؟! أنا كنت بابعت لك كل اللي باكسبه تقريبًا.
- كان بيقضي بالعافية... ده أنا كان ناقصني أشحت علشان أعيش.
- يعنى خلاص... مفيش أرض... ولا بيت واسع... ولا سوبر ماركت... ولا حاجة خالص... كله ضاع؟

- ما أنت لو فالح زي بقية الرجالة كنت عرفت تحوش قرشين... كنت بص لأخوك الصغير... لكن أعمل إيه؟ أنا طول عمري حظي وحش... وبختي مايل!
- يعنى حارجع لورشة الطوب تاني؟
- ميلتْ بختي معاك... منك لله يا بعيد.

وأعطته ظهرها، وانهمكت في تمشيط شعرها؛ بينما انفجر باطنه في صورة دموع تسحها عيناه.

*****

١٣

كالآخرين ابتعد فتحي الغنيمي عن طريق خميسة عندما خرج مرسي الجن من السجن... لقد عاد إليها رجلها... هي لن ترضى بأحد غيره طالما هو موجود... وهو قد يقتل من يحاول الاقتراب منها... لكن حدثت المفاجأة ذات عصر... كان فتحي جالسًا في الدكان يغالب الحر والنوم ويغالبانه... فإذا به يرى خميسة أمامه بعينيها الداكنتين... وجسدها الهائل الرجراج... وابتسامة كبيرة تملأ وجهها كله... فرك عينيه حتى يتأكد أنها هي... وقام مرحبًا بها...

- يا ألف أهلاً وسهلاً... إيه النور ده كله... الدكانة نورت!

ضحكت... تظاهرت باختيار بعض الخضروات وهي تلصق جسمها به... وتقرب ثدييها من صدره... وتلفح وجهه بأنفاس من جهنم...

- عاوزة أشوفك!
- إزاي؟ ومرسي؟
- مالكش دعوة بمرسي!
- لكن...
- أنت خايف وللا إيه؟
- لأ طبعًا مش خايف... أنا...
- خلاص قابلني النهاردة بعد المغرب.

- فين؟
- في الأنفوشي... علشان نبقى بعيد عن العين!

ووضعت كمية من الخضروات في كيس، وذهبت دون أن تدفع الحساب وفتحي يتابعها بعينيه حتى اختفت وهو يظن نفسه في حلم، ولا يستطيع عقله استيعاب أو فهم ما جرى!

*****

كان عثمان الغنيمي محط أنظار الجميع في القرية... شاب لم يتجاوز الخامسة والثلاثين عائد من ليبيا بثروة كبيرة... وهو غير متزوج رغم أن لديه طفلين تربيهما أمه... بعد أول ليلة قضاها عثمان مع أمه في حجرتها في بيت العائلة... قرر أن يغادر هذا البيت...

طاف بالمنطقة كلها ومعه فتحي كمرشد... بحثا بدقة حتى عثرا على بيت واسع يقع في منطقة متوسطة بين القرية القديمة والقرية الجديدة... كانت مساحة البيت أكثر من مائتي متر... وقد بُني منه طابقين، ولا يحتاج إلا إلى أشياء قليلة حتى يصبح صالحًا للسكن... سأل عثمان عن البيت، فعرف أنه معروض للبيع، فاشتراه، وجهزه خلال أسبوع واحد، وانتقل إليه هو وأمه وطفليه، فاحتل فتحي حجرة الجدة... سكن عثمان وأسرته الطابق العلوي، وقرر أن يقيم في الدور الأرضى مشروعًا يعيش منه.

*****

ربطت صداقة حميمة بين خميسة، ونجية، ونونا؛ لذلك لم تتردد نونا في مصارحتهما برغبتها في الزواج من عثمان الغنيمي، وطلبت منهما مساعدتها في تحقيق غرضها... فصارحها الاثنتان برغبتهما في الاستفادة قدر الإمكان من الأموال التي عاد بها عثمان من ليبيا، ولم يكن هناك تعارض بين رغباتهن؛ لذلك قررت كل منهن مساعدة الأخرى للحصول على ما تريد!

أولمت نجية وليمة فاخرة دعت إليها عثمان الغنيمي ونونا، وكان عبد العزيز يقوم على خدمتهم، ولم تدخر نجية جهدًا في الثناء على نونا، وأخلاقها المتينة... وكمالها... وجمالها... وعقلها... ولهفة شباب ورجال البلد عليها... ورغبتها عن الجميع، وتضحيتها بنفسها وشبابها من أجل أمها وأختها... كما لم تدخر نونا جهدًا في إبراز مفاتنها ودلالها... كانت أنوثتها تصرخ داخل ثوبها الضيق... وثدياها يكادان يقفزان من فتحة الفستان الواسعة، وضحكتها كترنيمة عازف متمكن على آلة كمان، وانتهت الوليمة بالنتيجة المرجوة منها، وبدأ عثمان الغنيمي يتعلق بنونا... وعلى نجية أن تزيد من تعلقه هذا... وعلى نونا ألا تدعه يفلت منها... إنه فرصة العمر التي لن تتكرر...

*****

١٤

جلس فتحي الغنيمي وخميسة يأكلان السمك في أحد مطاعم الأنفوشي، كانت خميسة تتحدث طوال الوقت، وفتحي يلتهمها بعينيه... قالت إنها أرادته دائمًا، وما زالت تريده؛ لكن الظروف السيئة هي التي حالت بينهما في كل مرة، وأنها مصممة على الفوز به رغم كل الظروف... ستعطيه نفسها بجنون وسخاء لا حدود له... ستخلع ملابسها أمامه قطعة قطعة بطريقة لا تخطر له على بال... سترقص له عارية حتى تقع من طولها... ستدخله الجنة التي لا يمكن أن يعرفها إلا معها... وصل فتحي إلى قمة الاستثارة... صرخ:

- إمتى؟
- وطي صوتك... الناس حوالينا.
- إمتى يا خميسة؟ إمتى؟
- قريب قوي... لازم نشوف طريقة... وندبر فرصة!
- تعالي... دلوقتي.
- فين؟
- في أي حتة!
- خليها مرة ثانية علشان ما نتأخرش أكتر من كدة.

حققت خميسة غرضها الأساسي من المقابلة فى طريق العودة... ملأت رأس فتحي بالمشروع الذي اتفقت عليه مع مرسي الجن

وسعيد الشضلي... وكان دور فتحي الغنيمي أن يقنع عمه عثمان بالمشروع... البلد في حاجة إلى فرن خبز بلدي كبير... وهو مشروع لا يخسر... كما أن أبواب الاستفادة منه للجميع لا نهاية لها!

قرر عثمان الغنيمي شراء سيارة نصف نقل... فهو يجيد القيادة... كما أنها عمل مربح... خلال أيام قليلة اشترى السيارة... واستخرج الرخصة وبدأ ينقل بها الطوب... كانت أسعد لحظات حياته عندما ينطلق بسيارته وهي فارغة على الطريق الصحراوي... ينطلق بأقصى سرعة وهو يشعر بالتحرر التام... يشعر بأنه حقًا موجود!

*****

لم تظن نونا أنها يمكن أن تكون ذات يوم زبونة لدى الدكتور حسين عبد الواحد عندما عرفتها نجية به... لقد تخصص الدكتور حسين في أمراض النساء والولادة، وافتتح عيادة في عزبة البحر التي لا تبعد كثيرًا عن البلدة، وكان يكسب كثيرًا من ممارسته المهنة... لكنه كان يكسب أكثر من النشاط الذي لا تعرفه الضرائب ولا تحاسبه عليه... كان الدكتور حسين يقوم بعمليات الإجهاض بمهارة يحسد عليها؛ كما كان يتقن ترقيع غشاء البكارة، لتعود الفتاة عذراء حتى لو جامعها مائة رجل!

كانت نونا بحكم عملها في الكوافير تعرف كثيرات يحتجن خبرة الدكتور حسين ومهارته سواء في الإجهاض أو الترقيع، فأصبحت نونا من أهم موردي زبائنه، وكانت تحصل على مبالغ طائلة من الزبائن، وعمولة كبيرة من الدكتور حسين.

*****

تطورت العلاقة بين عثمان الغنيمي ونونا كثيرًا حسب الخطة التي وضعتها نونا بمساعدة نجية وخميسة... دعت نونا نجية وعبد العزيز وعثمان وأمه وطفليه إلى الغداء والعشاء في بيتها أكثر من مرة... عرفتهم بأختها سها وأمها الكسيحة.

كانت نونا تضغط على عثمان بأنوثتها الصارخة، وتقربها من أمه وطفليه... لقد رسمت خطتها حتى تستولي عليه بالثلاثة... سيصرخ الرجل داخله طالبًا إياها، وستدفعه أمه، والطفلان إليها!

عندما طلب عثمان من نونا أن تخرج معه ترددت كثيرًا، ومانعت، وطلبت منه مهلة يومين لتفكر، ثم وافقت أخيرًا تخت ضغط... وإلحاح... ووساطة نجية!

أحمر وجهها، وبان الغضب في عينيها، واحتقن صوتها عندما حاول أن يمسك يدها... أكدت له أن خروجها معه لا يعني أنا بنت سهلة... إنها بنت ناس... رباها أهلها على الأخلاق والفضيلة... وهي أول مرة تخرج مع رجل... لأنها أحست بالراحة معه... كلامه وقربه منها يشعرانها بالاطمئنان، وأنها أحست معه أنها وجدت الأب الذي

فقدته وهي صغيرة، والأخ الكبير الذي تمنت أن يكون لها ليحمل عنها عبء أسرتها، وهددته أنه لن يراها مرة أخرى في أي مكان إذا حاول أن يمسك يدها الطاهرة مرة أخرى!

أعتذر عثمان لنونا كثيرًا، وأبدى الندم، فتنازلت وابتسمت...

– أنا مسامحاك المرة دي... لكن المرة الجاية يمكن أقتلك... ده الشرف غالي يا بوي.

وضحكت، فضحك من أعماقه وهو يغوص في رمال ناعمة لا يحس بها... عندما عاد عثمان إلى البيت تحدث مع أمه عن رغبته في الزواج... وطلب منها أن ترشح له عروسًا، وكانت نجية موجودة معهما، فذكرت اسم نونا، ولم تعترض الأم؛ بل أبدت ارتياحًا كثيرًا لأن الله هداه إلى بنت الحلال الطيبة الشريفة التي لا تناديها إلا بكلمة "ماما" والتي تعطف على سامح وسناء وتحن عليهما كأنها أمهما.

ذهب عثمان في اليوم التالي إلى أم نونا، وعرض رغبته في الزواج من ابنتها، فوافقت الأم؛ لكن رفضت نونا لأنها لم تكن تفكر فيه كزوج؛ كانت تعتبره مجرد أخ أكبر تشعر بالراحة والأمان معه... لذلك طلبت أمها لها عدة أيام لتتأكد من مشاعرها تجاهه قبل أن توافق!

وافقت مؤكدة لعثمان أنها فكرت جيدًا، واختبرت مشاعرها بدقة، فوجدت أنها تحبه بشدة وإخلاص، وأنه الرجل الذي كانت تحلم به دائمًا!

ذهبت نونا إلى الدكتور حسين عبد الواحد في عيادته في اليوم التالي... وأخبرته أنها سوف تتزوج خلال شهور قليلة لأن خطيبها ملهوف على الدخول بها... وأنها تريد أن تعود عذراء ضحك الدكتور حسين:

- حاتتجوزي؟ يا خسارتك يا نونا!
- ضحكت هي الأخرى:
- قسمتي بقى!
- والله حاتوحشينا يا نونا!
- ليه هو أنا حاموت؟
- يعني الود حيفضل واللا عريس الغفلة حياخدك من حبايبك؟
- ما عاش اللي يا خدني من حبايبي يا دكتور!

وأكدت نونا للدكتور صدق كلامها، وإخلاص مشاعرها لأصدقائها القدامى بأن أعطته نفسها وهي لم تكن أول مرة على أية حال، ولن تكون الأخيرة، وصنع الدكتور حسين عبد الواحد بعد أسبوع المعجزة، وعادت نونا عذراء من غير سوء!

١٥

قام فتحي الغنيمي بالدور المرسوم له من قبل خميسة بإتقان يحسد عليه، أقنع عمه عثمان بفكرة إنشاء فرن في الدور الأرضي من بيته الجديد، وعرفه بمرسي الجن، وسعيد الشضلي اللذين ذللا كل العقبات، وبدأ العمل بالفرن بعد زواج عثمان ونونا بشهرين... لكن الفرن لم يأخذ كل مساحة الدور الأرضي... إذ بقيت مساحة طلبتها نونا من زوجها كهدية زواج لنتشئ فيها كوافير، تديره بنفسها؛ وعندما طلب فتحي من خميسة أن تفي بوعدها وتعطيه نفسها، كانت الظروف السيئة تعاكسها وتحول بينهما دائمًا!

كان افتتاح الفرن فرصة كبيرة بالنسبة لعبد العزيز إذ تدهورت حياته إلى درك لم يكن يظن أن يصل إليه في يوم من الأيام، فظن أن عمله في فرن أخيه، يستطيع إصلاح ما أفسده الدهر!

كانت نجية تخرج يوميًا تقريبًا تاركة عبد العزيز وحده في البيت وعندما تعود ويسألها أين كنتِ؟ لا يجد إجابة إلا البصق والسباب والركلات حتى كف عن سؤالها، ثم بدأت تقلل من خروجها؛ لكن تدعو أصدقائها للبيت... نونا، وخميسة، وسعيد

الشضلي، ومرسي الجن، والدكتور حسين عبد الواحد، وآخرين لم يكن عبد العزيز يعرفهم!

كانت صفة عبد العزيز الاجتماعية كزوج نجية ورجل البيت مرعية تمامًا في البداية؛ لكن بدأ شكل الولائم يتغير إذ أصبحت الوليمة تقتصر على ضيف واحد فقط، وتطلب نجية من زوجها في كل مرة أن يذهب ليشتري شيئًا ما... وكثيرًا ما أكد لها عبد العزيز أن ما تريده موجود فعلاً بالبيت، فكانت تتنمر له، وتظهر الغضب الذي يعرف ما سيتبعه، فيطأطئ رأسه، ويذهب؛ وعندما يعود يكون الضيف قد انصرف... وتكون نجية في سريرها عارية أو شبه عارية، يبدو عليها الإنهاك!

- معاك حشيش يا عبد العزيز؟
- معايا حتة صغيرة.
- طيب لفها لي في سيجارة.
- حاضر.
- عندك فلوس على الكومودينو خدها كلها... اشتري حشيش وشبرق نفسك!

ولم تعد نجية في حاجة إلى إبعاد عبد العزيز عندما يكون معها ضيف بالبيت، ثم أصبح عبد العزيز يعرفها بزبائن جدد!

كانت نجية تشد أنفاس سيجارة الحشيش التي يلفها لها زوجها عبد العزيز، فيذهب بها الدخان الأزرق في عالم آخر من

الـذكريات والأحـلام والكـوابيس... كانـت تـرى نجيـة الطفلـة تلعـب الحجلة في الشـارع، وتجـري وراء الـدجاج والأرانـب فـوق السـطوح، وترى نجية المراهقة التي أحبت حسين عبد الواحد طالب الثانوي، وتمنت أن تتزوجه عندما يصبح طبيبًا كما يحلم... لم تكن في تلك الفترة تستطيع أن تتخيل ما حدث في حياتها بعد ذلك، كانت تحب حسين بصدق رغم أنها كانت تترك غرائزها تقودها حيثما تريد... صـاحبت كـل أصـدقاء أخيهـا رمضـان... خرجـت مـع أحـدهم بـين الحقول، وذهبت مع آخر إلى شاطئ البحر، وقبلت الثالث في ظلام سينما ريو الصيفي... حتى عبد الواحد جودة الشاب الخجول الذي كان يغض بصره عندما يراها قادمة بالشاي عملت على إغرائه، كانـت تعبـد نظـرات الإعجـاب، وكلمـات الغـزل، وقـبلات الشـبق المحروم التي تمجد حسن وجهها، وليونة جسدها، وتروي إحساسها بأنوثتها.

*****

جـاء عبـد الواحـد جـودة ليسـأل عـن أخيهـا، فـانتهزت فرصـة وجودها وحدها في البيت وقالت له:

– موجود... تفضل!

دخـل عبـد الواحـد جـودة حجـرة رمضـان، وجلـس على سـريره الملاصق لمكتبـه... قلـب في المجلات الموضـوعة على المكتـب... مجلـة حـواء... عـدد خـاص أزيـاء الصيف... عـدد خـاص... مايوهـات البحـر...

عدد خاص قمصان النوم... دخلت نجية الحجرة وبيدها صينية عليها كوب شاي يتصاعد بخاره... ألقى عبد الواحد جودة المجلة التي بيده على المكتب بسرعة... احمرت أذناه... وعرق جبينه كمن ضبط متلبسًا بجريمة قتل... وضعت نجية الصينية على المكتب... جلست بجوار عبد الواحد... أمسكت المجلة التي كانت بيده...

- إيه رأيك فيها؟
- كويسة.
- إيه أحلى قميص عجبك؟
- آ... آ... آ... مش عارف.
- أنا عجبني القميص الوردي... شايف جميل إزاي... طويل وفيه فتحتين لحد الوسط... ومكشوف الصدر والظهر... أنا عملت واحد زيه... يهبل عليّ... تحب تشوفه؟
- آ... آ... آ... مافيش... داعي.
- أنا مش حاروح أجيبه... أنا لابساه.
- هو... هو... رمضان فين؟
- راح مشوار وزمانه جاي.

كانت قد خلعت الروب المنزلي الذي تلبسه فوق القميص الوردي الشفاف...

- أيه رأيك في القميص ده عليّ بقى؟

- أنا... أنا... باقول... أبقى... أجي لرمضان... في... وقت... تاني.
- طيب اشرب الشاي... أصل أنا لوحدي في البيت.
- بس... بس...
- أنت مش عايز تشرب الشاي من إيدي وللا إيه؟
- أبدًا... بس...

ضحكت... تناولت كوب الشاي... وقربته إلى فمه... رشف منه رشفة...

- إيه رأيك في الشاي من إيدي بقى؟

ابتلع ريقه بصعوبة وهو لا يستطيع السيطرة على عينيه اللتين تتجولان بحرية داخل القميص الوردي...

- حلو...

ناولته رشفة أخرى وهي تلصق نفسها به... ثم مشت بيدها فوق شعرات من صدره نافرة من فتحة القميص، وأدخلت يدها داخل صدره، ودلكته وهو غارق في ارتباك التجربة الأولى، فقبلته في فمه قبلة عميقة، أيقظت الرجل داخله وألقت عنه ثياب التردد والخجل، فاعتصرها بذراعيه، وضغط شفتها السفلى بأسنانه حتى كادت تدمى، ودار بها عدة دورات فوق السرير.

*****

شدت نجية آخر أنفاس سيجارة الحشيش، ورأت صورة حسين عبد الواحد تتشكل من الدخان الذي زفرته... رغم كل ما كانت تفعله نجية إلا أن إحساسها الحقيقي كان موجهًا نحو حسين وحده... كانت تشعر معه بأنها صفر... لا شيء... لا قيمة لها بجواره... كان يمتلكها تمامًا... لم يعاملها حسين كالآخرين... لم يعاملها كملكة متوجة فوق عرش الجمال والأنوثة والرغبة، ولم يرتبك أمام جرأتها واندفاعها؛ بل لم يعاملها كإنسان مساوٍ له... كان يشعرها أنها مخلوق أدنى منه درجة أو درجات، وأنها ملك له، وكانت تحب معاملته تلك... تحب اقتحامه لها... واحتواءه إياها... واستيلاءه عليها... وتحكمه فيها جسدًا وقلبًا وروحًا... ولم تكن نجية تغار عليه من نونا أو غيرها ممن تعرف أن لهن علاقة بحسين، فهى لم تعط نفسها يومًا حق الغيرة عليه؛ لأن الإنسان يغار على ما يملك... وهي لا تملك حسين... هو الذي يمتلكها... إنها تأخذ منه ما يتفضل بإعطائها إياه... إنه سيدها... وليس لها أن تطلب أكثر... أو تعترض على ما يفعل!

أسعد أوقات نجية مع حسين عندما يستلقي على ظهره عاريًا بعد اللقاء، وتستند هي بذراعها على صدره وبطنه وبيدها (ملقاط) تشد به شعرات نابتة فوق وجنتيه أو أنفه... كانت تشعر أنه لها وحدها... كله ملكها... ولو للحظة وكانت تصل إلى قمة من النشوة تجعلها تتمدد فوقه، وتغوص بداخله مرة أخرى، ولم يكن حسين

عبد الواحد يغار عليها... فهو يمتلكها كما يمتلك أخريات، ويعرف أن هذا الامتلاك من النوع الذي لا يعطيه حق الغيرة، فالغيرة هنا حماقة وبلاهة لا داعي لها.

لاحظ عبد العزيز أن سيجارة نجية لم يبق بها إلا أنفاس قليلة... فلف لها سيجارة أخرى....!

*****

١٦

بعد تسعة أشهر خرج سمير الغنيمي من المعتقل، يتردد في أذنيه صدى النشيد الذي كان يترنم به الأخ حازم عفيفي زميله في الزنزانة...

سجن في شرق بلادي

سجن في غرب بلادي

سجن هي كل بلادي

سجن... سجان... وعيون!

مشى بقدمين لم تعودا تستطيعان حمله، وأخرج زفيرًا حارًا... تأمل انبساط الشوارع أمامه، وزحام الناس، واتساع السماء الذي بلا آخر... تسعة أشهر لم ير خلالها هذا الاتساع والجمال.

ركب الأوتوبيس عائدًا إلى القرية، كان الأتوبيس مزدحمًا للغاية... وهو كريشة ضعيفة، يدفعه الركاب فيما بينهم... استطاع أن يجلس على كرسي بعد عدة محطات... نظر من الأتوبيس... كان أسفلت الشارع يجري في الاتجاه المضاد... تذكر سمير في سواد لون الأسفلت مرارة عذاب الأشهر التسعة الماضية، وشعر بدمعة تسقط فوق وجنته... مسحها... لم يذهب سمير الغنيمي إلى بيت العائلة... ذهب إلى بيت الحاج عبد الصبور بسطاوي، ووضع يده على الجرس... فتحت هند الباب... شهقت من المفاجأة عندما رأته...

ألقت بنفسها في حضنه... انخرطت في البكاء... وجسدها كله يرتعش... خلال أقل من دقيقة كانت عائلة بسطاوي تتحلق حول سمير في غرفة الجلوس... كانوا جميعًا في غاية السعادة... أخبروه بمحاولاتهم التي لم تتوقف لمعرفة مكانه؛ وكيف باءت كلها بالفشل... لم يتكلم سمير تقريبًا... كان ينطق بكلمة من وقت لآخر عندما يشعر بالحرج من طول صمته... وكان أحيانًا يبتسم ابتسامة صغيرة واهنة... كان يشعر بدفء لقاء عائلة بسطاوي له... يحس أنه يعود إلى الحياة شيئًا فشيئًا من خلال كلامهم؛ لكن لم يجد لديه القدرة ليجيب على الأسئلة التي انهالت عليه...

- أين كنت؟
- ماذا حدث لك؟
- ماذا فعلوا بك؟
- كيف خرجت؟
- لماذا قبضوا عليك؟

شعر كريم بسطاوي أن سمير يعاني بما فوق الطاقة البشرية من آثار التجربة الرهيبة التي خاضها، فطلب من أمه أن تعد طعامًا للترحيب بالابن العائد... أخذ أباه وخرج به من الحجرة... ترك سمير مع زوجته هند وحدهما لعله يتحدث معها ويستريح.

نظرت هند إلى سمير بحنو بالغ... أدركت عمق حبها له، وتعلقها به خلال الأشهر التي غابها... كانت تنتظر كريم كل يوم لتسأله هل

من أخبار عن سمير؟ وكان تدفعه إلى مزيد من السؤال والتحري والتقصي إذا شعرت بأنه قد ييأس... كانت تتقلب في فراشها كل ليلة تحلم بعودة سمير وهي مفتوحة العينين... زوجها الذي أخذوه منها إلى مجهول غامض ليلة كتب الكتاب... وكان الشوق إليه يمزقها... تريد أن تمسك يديه... تضغطهما... تمشي بيدها فوق شعره... تقبل شفتيه وخديه وعينيه... تحتضنه... تدخله في صدرها... تخبئه بعيدًا عما لا تعرفه، وكانت تصحو من نومها، لتجد الدموع تنساب على وجهها كالسيل الدافق، فتمسحها، ثم تنخرط في البكاء من جديد.

قامت هند... أغلقت باب الحجرة، وجلست بجوار سمير... أمسكت يده... كان شاردًا ببصره كالمتأمل في نقوش السجادة... ضغطت يده... رفع وجهه تجاهها... نظرت في عينيه بعمق وحب... قالت من أعماقها:

- حمد الله على السلامة يا سمير.

ابتسم ابتسامة صغيرة ممتنة، فقبلت يده، ووضعت رأسه على كتفها.

- أنت وحشتني جدًا.
- وأنتي كمان يا هند وحشتيني.

نظرت إلى وجهه الذي برزت عظام وجنتيه... وجسده الذي ازدادت نحافته...

كلمني يا سمير... فضفض لي... أنا مراتك... احكي لي... يمكن تستريح.

- أرجوكي يا هند... أنا مش عاوز أتكلم في أي حاجة.
- ليه يا سمير إيه اللي حصل؟ هم عملوا فيك إيه؟
- على الأقل دلوقتي يا هند... بلاش نتكلم في الموضوع ده.
- اللي يريحك يا حبيبي!

أضاءت ابتسامته عندما سمع كلمة يا "حبيبى"... شعر بموجة حنان طاغ تجتاحه... ضمها إليه بشوق... قبل شفتيها قبلة أودع فيها كل مرارة شهور البعاد وعذابها.

صوت طرقات على الباب... الأم:

- الأكل جاهز يا أولاد.

قام سمير وهند... تناولت الأسرة الطعام... أثناء الأكل قال كريم:

- أنا عاوز أقعد معك يا سمير... واللا تحب تخرج تتمشى في الغيطان وندردش؟
- أنا كمان محتاج أتكلم معاك يا كريم... بس بلاش النهاردة.
- أنا مش باقول لازم النهاردة... خليها بكرة.
- ولا بكرة.

- إمتى؟
- بعد كام يوم... لما أهدا... أنا بنفسي حاجيلك يا كريم.
- زي ما تحب.

قالت الأم:

- وأنت ناوي على إيه يا سمير يا بني؟
- مش فاهم قصدك إيه يا ماما؟
- قصدي حاتقعد فين؟ وتشتغل إيه؟
- مؤقتًا حاقعد في الدكان وأرجع أبيع هريسة لحد ما أرتب نفسي.

قال الأب:

- ربنا يوفقك يا بنى؟

استأذنهم سمير ليذهب إلى بيت العائلة بعد أن شربوا الشاي...

*****

١٧

كانت تغييرات كثيرة قد حدثت في بيت العائلة وكأنه غاب تسع سنوات وليس تسعة أشهر... الدكان يديره الآن إخوته الصغار وعلى رأسهم عدلي وكريمة بعد أن أصبح الأب عيد الغنيمي كومة من العظام، يجلس متكورًا على نفسه بجوار الدكان، يبول لا إراديًا، ويتساقط لعابه على صدره، ولا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة مكتملة، ويتمنى الجميع له الموت ليرتاح هو، ويرتاحون هم من قرفه!

يسكن فتحي حجرة الجدة بعدما ترك الدكان ليعمل في مخبز عمه عثمان... وفاحت رائحة شقة عمه عبد العزيز تمامًا حتى أصبحت أمرًا واقعًا، لا يفكر أحد في القرية في تعيير العائلة به، ولا تخجل منه العائلة.

ترك عبد العزيز العمل في المخبز بعد أقل من أسبوع... قالوا أنه لم يحتمل الشغل والتعب والشقاء، وقال إنهم أبعدوه لينفردوا بأموال عثمان... اتفقوا جميعًا عليه: نونا، وخميسة، وسعيد الشضلي، ومرسي الجن، وفتحي الغنيمي، وقالوا أنه يتخذهم مجرد سبب ليعود لحياة البطالة التي استمرأها، ولم يعد يخجل منها!

بدأ عمل عبد العزيز ونجية يتسع، فأحضرا عدة فتيات، وحشيش، وأفيون، وأصبح من المعتاد أن يكبس بوليس الآداب على الشقة من وقت لآخر ويخرج بغنيمة طيبة.

لم يستطع سمير أن يبقى في بيت العائلة سوى دقائق رأى فيها إخوته الذين لا يعرف عددهم، ويخطئ في أسمائهم، وتحسر قلبه عليهم، وتساءل بألم: "من منهم سيصبح قوادًا، أو لصًا، أو تاجر مخدرات؟ ومن من الفتيات ستصبح عاهرة؟

جلس سمير على شاطئ الترعة محدقًا في مياهها التي تتحرك ببطء وهدوء لا يشغلها شيء... ولا يهمها المصير... خبطت كتفه يد ثقيلة... التفت...

- فتحي؟
- سمير... حمد الله على السلامة!

وقف سمير... احتضن أخاه، ثم جلسا معًا وبعد دقائق انتهى الكلام المعتاد، ولم يجد أيهما ما يمكن أن يقوله للآخر... لم يكن بينهما تواصل في يوم من الأيام... لم يختر أي منهما الآخر ليكون أخاه، ولم يحاول أحدهما الاقتراب من أخيه... سارا في طريقين مختلفين... لم يربطهما إلا اسم الغنيمي الذي يمكن أن يكون ببساطة مجرد تشابه في الأسماء... عندما طال الصمت بينهما شعرا بالحرج... فكر فتحي في إلقاء نكتة؛ لكنه نظر إلى لحية سمير التي استطالت، والجدية المفرطة التي تملأ تقاطيع وجهه، فنسي النكتة؛

لكنه ضحك... شعر سمير بأن ضحكة فتحي طوق نجاة للخروج من قيد الصمت الثقيل...

- أنت بتضحك ليه؟
- خطر شيء ببالي!
- إيه هو؟
- مش مهم... المهم أنت... ناوي تعمل إيه؟

لقد سألته حماته نفس السؤال من قبل ولم يكن يعرف ما حدث ببيت العائلة... إنه سيبيع الهريسة... لكن أين سيعيش؟ لم يحدد بعد...

- مش عارف.
- إزاي مش عارف؟
- لسة ما فكرتش!
- ما تتعبش نفسك بالتفكير... سيبني أنا أفكر لك!

كان فتحي يقول أي كلام لا يقصده حتى لا يعود الصمت يطبق عليهما، ولم يأخذ سمير كلامه وحماسته المفتعلة بجدية؛ لكن تحرك عقل فتحي بسرعة بعد أن نطق جملته الأخيرة، وابتسم لنفسه ابتسامة زهو، وهنأ نفسه على ذكائه المنقطع النظير، وقام واقفًا:

- تعالى معي.
- على فين؟

- أنت شفت عمك عثمان؟
- لأ!
- ده بقى من أعيان البلد... تعالى سلم عليه.

ذهب سمير مع فتحي لأنه يريد أن يرى عمه ولأنه لا يريد أن يعود إلى جلسته على شاطئ الترعة محملقًا في مياهها المتهادية بلا نهاية وإلا أصيب بالجنون!

عندما وضع فتحي أصبعه على الجرس، فتحت الباب طفلة يعرفها سمير جيدًا... ما هي إلا لحظة وتذكرها... وتساءل بينه وبين نفسه: "ما الذي أتى بأخت نونا إلى منزل عمي؟" وقبل أن يفكر في أية إجابة كانت نونا نفسها واقفة أمامه بملابس منزلية أنيقة غالية الثمن... عندما رأى سمير نونا شعر بالفزع، وابتسمت هي لمرأى ملامحه المفزوعة... سألها فتحي:

- عمي هنا؟
- جاي بعد شوية... ادخلوا.

شد فتحي سمير من يده ودخلا... أسرعت الجدة والطفلان إليه... احتضن سمير جدته وبكى معها... وقبل الطفلين قبلات كثيرة... جاءت نونا بعصير البرتقال، وأمرت الجدة والطفلين بلهجة حازمة أن يكفوا عن البكاء حتى يمكنها الترحيب بالضيف، فاستكانت الجدة، وصمت الطفلان... وقامت الجدة مستأذنة بعدلحظة، وأخذت الطفلين في يدها... وخرجت...

- لما ألحق صلاة العصر قبل ما تفوتني.
- أهلاً يا سمير حمد الله على السلامة.
- الله يسلمك يا نونا.

قهقه فتحي:

- خليك ولد مؤدب... قل لها يا امرأة عمي.
- امرأة عمي؟

قالها بدهشة وباحتقار، فانطلقت ضحكتها العربيدة التي يعرفها جيدًا، ثم غمزت بحاجبيها وهي تقول له وعيناها مركزتان على عينيه...

- كتير عليا وللا إيه؟

أطرق خجلاً من نفسه، ومن عمه، وغرق في صمت، فارتفع صوت فتحي بحماسة مفتعلة ينافق نونا:

- بالعكس... ده عمي رجل محظوظ أن ربنا رزقه بيكي.
- قالت لسمير:
- وأنت إيه رأيك يا سمير؟
- رأيي في إيه؟
- عمك رجل محظوظ وللا لأ؟
- عمي؟
- أيوه.
- الله يكون في عونه!

- قصدك إيه؟

قالتها بحدة، فخشي فتحي غضبتها، فقال متضاحكًا:

- ما يقصدش حاجة يا ست الكل... الله يكون في عوننا كلنا.

دخل عثمان الحجرة... فوجئ بسمير:

- سمير ابن أخويا... حمد الله على السلامة يا واد!

وأخذه في حضنه... ضمه بحنان أبوي بالغ... ثم أجلسه جواره، وأخذ يحدثه ويلاطفه... شعر سمير بسعادة وراحة... لقد كان دائمًا قريبا من عمه عثمان... كان هو أبوه الحقيقي وليس عيد الغنيمي... قالت نونا لعثمان بنوع من الغيرة:

- يظهر إنك بتحب سمير قوي؟

- باحبه؟ ده ابني!

فانتهز فتحي الفرصة وقال:

- علشان كده أنا جبته لك يا عمي أعرض عليك فكرتي اللى لسة سمير مايعرفهاش.

- فكرة إيه يا فتحي؟

- سمير يمسك إدارة المخبز!

قالت نونا محتجة:

- بس أنت اللي بتديره يا فتحي... والشغل ماشي كويس!

- سمير أخويا الكبير... أي نعم هو أكبر مني بسنة واحدة... بس أنا مش حاخجل أشتغل تحت إيده!

قال سمير بحياء:

- بس أنا ما أفهمش حاجة في شغل المخبز... و...

قاطعه فتحي:

- أنا حاعلمك كل حاجة... المسألة بسيطة.

قال عثمان:

- والله ابن حلال يا فتحي... ونعم الأخوة.

ذهب فتحي لينام في حجرته ببيت العائلة... وأصر عثمان على بقاء سمير معه حتى يجد مسكنًا...

- يا ابني الشقة واسعة... وفيها أوضة نوم احتياطي... ومش معقول أنك ترجع تنام في الدكان.

ولم تعترض نونا... بل ذهبت وأعدت حجرة النوم الاحتياطية لسمير، وخرج عثمان بعد ساعة قضاها مع نونا... كان مسافرًا إلى القاهرة بالعربة النصف نقل ومعه كمية كبيرة من السجاد لابد أن يسلمها الساعة السادسة صباحًا... صلى سمير ركعتين لله... وقرأ بعض آيات الذكر الحكيم... ودخل سريره لينام... عندما فُتح باب الغرفة... كانت نونا... دخلت... أغلقت الباب...

- أنت نمت؟

- تقريبًا.

- أنا عاوزة أقعد معك شوية.
- وأنا عاوز أنام.
- أنت بتكرهني للدرجة دي؟
- أنا مش باكرهك.
- تبقى لسة بتحبني!
- أنا لا باكرهك ولا باحبك... أرجوكي ابعدي عني.
- بس أنا باحبك... ولسة عاوزاك... نسيتني؟ نسيت نونا؟ نسيت ليالينا الحلوة في الدكان؟
- دي أسود ليالي حياتي... الليالي اللي غلبني فيها الشيطان.
- إحنا مافيش بيننا شيطان... بيننا الحب وبس.
- حبك هو الشيطان ذاته... ومش حاسمح له يغلبني مرة تانية.

كانت قد جلست بجواره، وبدأت تحرك يدها على صدره بنعومة رقطاء... هب من سريره فزعًا، شعر أنه أمام اختبار أقوى وأصعب من كل اختبارات شهور المعتقل الرهيبة... تذكر كيف حمله التعذيب المستمر والاتهامات الباطلة بالاشتراك في محاولات اغتيال أناس لم يسمع بهم من قبل... كيف جعله كل ذلك خيال إنسان... وكيف كانوا يلفونه في بطانية، ويحملونه عندما يريدون نقله من المعتقل للتحقيق معه... أقسى العذاب كان عندما يشدون

شعر العانة بسلك من نحاس، أو عندما يحرقون هذا الشعر، وشعر سمير أنه فقد رجولته بعد أن وضعوا في عضوه شيئًا كالشفاط الكهربائي، ولم يعد بعدها العضو قادرًا على الانتصاب... عندما وقف أمام المحقق ينفي عن نفسه كل التهم الموجهة ضده، ويحاول المحقق أن يجره بالأسئلة... ابتسم سمير فجأة... ثم شعر بثقة هائلة بالنفس... لقد أحس أن عضوه انتصب فجأة وأنه استمنى... واعتقد بأن تلك آية من الله لتثبيته!

وعندما عاد إلى المعتقل وهو يضحك، ويداعب زملاءه ،أصبح مثلاً أعلى لمن كانت تساورهم أنفسهم باليأس، أو بالتخاذل، فها هو العائد من التحقيق كأنه عائد من ليلة عرس، ولم يعرف أحدهم السبب... ضحكت نونا لمنظر سمير المختبئ منها في ركن الغرفة...

- حاتروح مني فين؟ أنت بتاعي!

لم يفكر في تغيير الجلباب الذي يرتديه؛ بل اتجه إلى الباب مباشرة... ألقت بنفسها عليه... صرخ فيها...

- حرام عليكي... ده عمي... صوني شرفه!
- عمك بياخد مني كتير... من شبابي... من غير ما يديني حاجة... بيتعبني... ويهدني... ومش بيرويني!
- يظهر إن الحلال مش بيرويكي!

ودفعها بعيدًا، وفتح الباب، واتجه إلى باب الشقة وهي خلفه تحاول أن تعيده لكنه خرج، وشد الباب خلفه بعنف.

عـادت نونـا إلى حجرتهـا تبكي بحرقـة... تبكي أنوثتهـا المهانـة، ويمتلئ قلبها بالغل، وتتضخم في نفسها فكرة الانتقام.

*****

١٨

مشى سمير في شوارع القرية النائمة وهو لا يعرف ماذا يفعل؟ أو أين يذهب، ثم اتجه إلى مسجد الإخوة، ونام على بابه حتى جاء موعد صلاة الفجر، فأيقظه الأخ الذي معه مفتاح المسجد وهو يسأله بدهشة:

- لماذا تنام على الباب؟
- أنتظر حتى يُفتح لي.
- سأفتحه لك
- ليتك تستطيع.
- كيف لا أستطيع؟! المفتاح معي!
- المفتاح معه هو
- من هو؟ أنا لا أفهمك يا أخي!
- لا بأس... افتح المسجد لندخل، ونصلي الفجر لعل الباب أن يُفتح لنا معًا.

مشى سمير وكريم بسطاوي معًا بين الحقول بعد صلاة الفجر... حكى سمير كل ما حدث، فهنأه كريم على صموده واجتيازه الامتحان بنجاح؛ لكنه لم يوافقه على رفض العمل في مخبز عمه عثمان...

- سيجد المؤمن الشيطان في كل مكان واقف له بالمرصاد وليس هذا مبررًا للهرب!
- لكنني أرى شيطاني هناك فلماذا لا أبتعد عنه؟
- لا تهرب منه بل واجهه.
- أخشى أن يهزمني.
- أنت أقوى منه.
- أنا ضعيف.
- الإيمان نور... والشيطان ظلام... والنور دائمًا أقوى مهما كان ضعيفًا.
- كيف أنظر في عيني عمي كل يوم وأنا أعرف حقيقة زوجته... وأتذكر ما كان بيننا؟
- قد يكون عمك بحاجة إليك.
- لماذا؟
- زوجته وأخوك والذين يعملون معه... الشضلي وخميسة والجن... كل هؤلاء طامعون في ثروته... وقد يقضون عليه.
- وماذا أستطيع أن أفعل له؟
- تحميه.
- كيف؟
- بأن تكون بجواره... وتتأهب للدفاع عنه في أية لحظة.

- لا أعرف... ما زلت مترددًا.
- توكل على الله ولا تتردد.
- أخشى التجربة... المؤمن يتمنى ألا يدخله الله في تجربة.
- المؤمن القوي يتمنى أن يدخله الله في التجارب لكي يثبت قوة إيمانه.
- لكني ضعيف.
- لا تظن بنفسك الضعف وإلا ستضعف بالفعل.
- أنت تدفعني إلى مجهول لا يعلمه إلا الله.
- كل ما لا تعرفه مجهول لا يعلمه إلا الله... توكل على الله ولا تتردد يا أخي

*****

عندما تسلم سمير إدارة المخبز كان فتحي سعيدًا سعادة حقيقية؛ بينما أظهر مرسي الجن، وسعيد الشضلي الرضا أمام عثمان الغنيمي، وهنآ سمير، ووعداه بالعمل بإخلاص وأمانة تحت قيادته... وعندما انفرد مرسي الجن بفتحي نظر إليه بغضب:

- عاوز أشوفك الليلة.
- فين؟
- في بيت الشضلي!

- عند خميسة؟
- أيوه.
- بعد العشاء حاكون هناك.

أعدت خميسة الجوزة، وعمرتها بالحشيش، وقدمتها لمرسي الجن... كان الأربعة يشكلون دائرة حول الجوزة، ويتداولونها فيما بينهم... كانت خميسة تجلس بين مرسي الجن وفتحي... وفخذها ملاصق لفخذ فتحي الذي انهالت عليه الأسئلة الغاضبة بسبب تولي سمير إدارة المخبز؛ بينما فتحي يفكر فيما يمكن أن يفعله بخميسة لو خلت الحجرة من الجن، والشضلي!

لاحظوا صمت فتحي فظنوا أنه غاضب من طريقة سؤالهم ولومهم له، فازدادت خميسة ميلاً بجسدها عليه وقالت بدلال:

- أنت مش بتتكلم ليه يا سي فتحي؟
- هو انتو إديتوني فرصة للكلام يا خميسة!

قال الجن بحنق:

- حنخرس خالص... اتفضل يا سيدي... اتكلم.

أخذ فتحي الجوزة من الشضلي... وشد نفسًا... واعتدل في جلسته بحيث التصق أكثر بخميسه ثم شد نفسًا آخر... وقال:

- سمير فرصة من السما بالنسبة لنا.
- إزاي؟

- عمي بيحبه وبيثق فيه... وهو مش بيفهم حاجة في شغلنا... ونقدر نعمل اللي أحنا عاوزينه ونرمي عليه المسئولية.

ضحكت خميسة، وضربته في صدره قائلة:

- ابن حنت صحيح... تعجبني.

انتفخ فتحي حتى شعر بضيق الحجرة عليه، وتمنى لو يركل الجن، والشضلي، ويختلي بخميسة... لكن الجن قال:

- أهو كده الواحد يستريح... ما قلتش كده ليه من الأول... إحنا لازم نحتفل بفكرتك الجهنمية دي.

قال فتحي ببلاهة:

- إزاي؟

- حاننقل القعدة لشقة عبد العزيز ونجية... وليلتنا حاتكون آخر صهللة.

تحمس الشضلي للفكرة، وقام واقفًا وهو يقول:

- يللا بينا.

ووقف فتحي معه؛ بينما ظل الجن وخميسة جالسين... قال الجن ساخرًا...

- اسبقونا أنتم.

قال فتحي بغيظ:

- وأنتو ليه ما تجوش معانا؟

قالت خميسة:

- الجن حايساعدني في توضيب الأوضة،.. ونيجي وراكم على طول.

قال الشضلي بتخاذل:

- زي ما أنتو عاوزين... بس ما تتأخروش علينا.

خرج فتحي والشضلي... نظر كل منهما إلى الآخر نظرة واحدة... ثم مشيا كل في طريق!

الإسكندرية- خورشيد

أكتوبر١٩٩٤- مارس١٩٩٥

الإسكندرية ج . م . ع

٠١٠١٨٨٣١٣٦١ (+٢)

٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧ (+٢)

حسناء للنشر والتوزيع